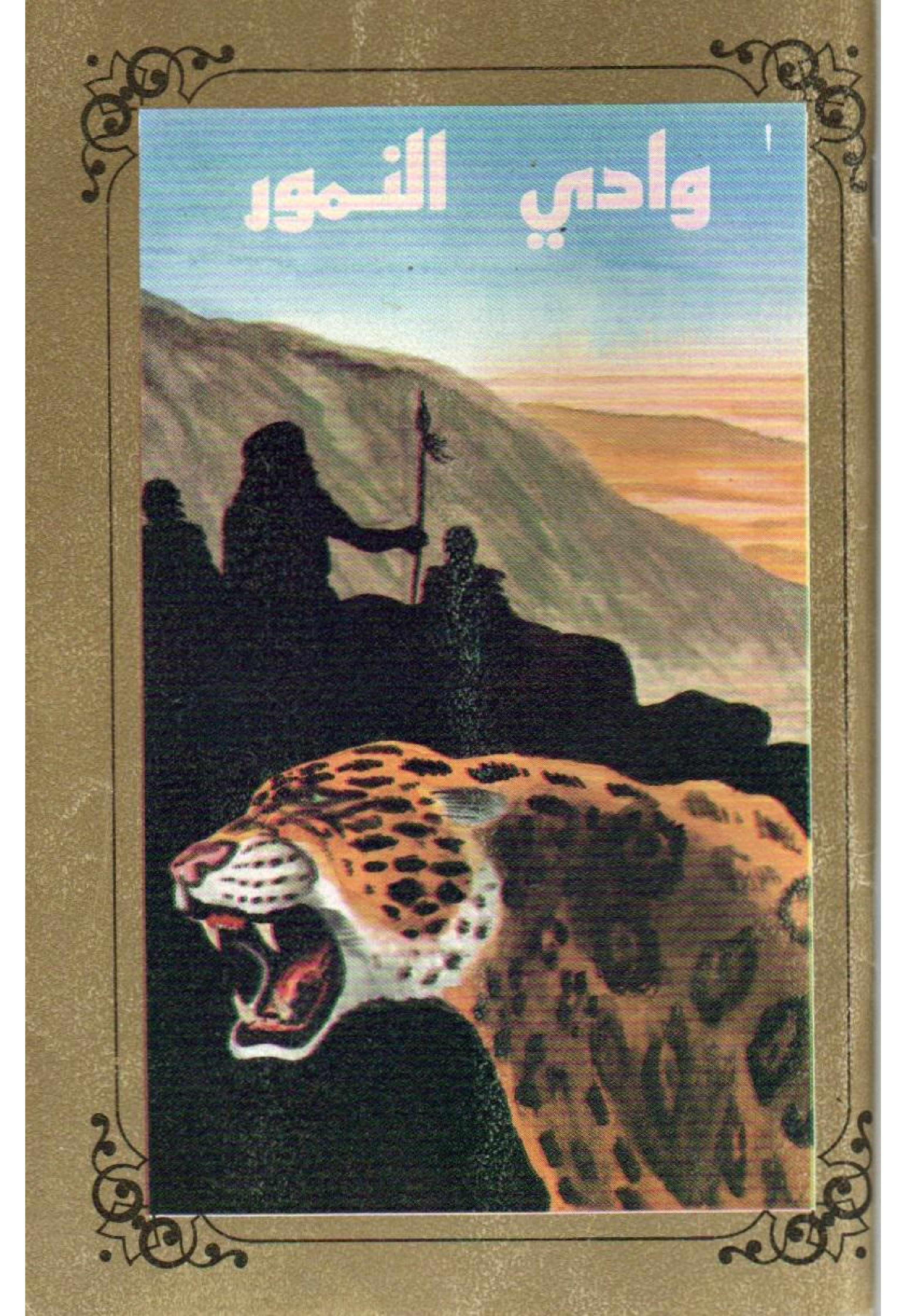


١
وادي النمور

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد

في ٣٠/ صفر/ ١٤٤٤هـ

٢٦/ ٩/ ٢٠٢٢م

م. سرمد حاتم شكر

وادي النمور

رسوم: أديب مكي

تأليف: محمد شمسي

وادي النمور
تأليف: محمد شمسي
الطبعة الاولى: ١٩٩٠

الناشر: وزارة الثقافة والاعلام
دار ثقافة الأطفال
العراق ـ بغداد ص . ب ٨٠٤١

سلسلة: كتاب التراث الذهبي
تصدر عن دار ثقافة الاطفال ـ قسم النشر
المدير العام: فاروق سلوم
سكرتير تحرير السلسلة: فاروق يوسف





كانت قبيلة «فهمْ» من قبائل العرب الصغيرة القابعة في تخوم الصحراء، وكانت مضاربها تتوزع شمال تهامه في أرضٍ متموّجة، جرداء، تشرف عليها من جهة الشرق مرتفعاتٌ شاهقةٌ تتصل بسلسلة جبال لا نهاية لامتدادها.

في تلك البقعة الماحلة من جزيرة العرب. ولد «ثابت بن جابر» قبل خمسة عشر قرناً، وبين ربواتها وكثبانها نشأ وترعرع وقد طبعت عليه الارض شيئاً من صفاتها وملامحها فشبّ خشناً وعراً حادّ الطباع. وما إن قارب السادسة عشرة من عمره حتى بدأ يشعر بالضيق والملل فالحياة من حوله رتيبة، بائسة، وألعاب الفتيان الفقراء ولهوهم لم يعد - كما كان من قبل - يغمره ويملأ حياته بالمرح والسعادة.

ولكن من أين لثابت أن يغيّر حياته؟ وهو الذي يعيش مع أُمه واخوته الخمسة في خيمةٍ كالحة، متهرّئة، لا تكاد تصدّ عنهم لفح الشمس في النهار ولا شدّة البرد في الليل؟ وكيف له أن يتشبّه ببعض فتيان القبيلة ممن تعجّ الربوع بأبلهم وخيلهم فيقضون الساعات الطوال على ظهورها يمرحون ويلعبون ويتشبّهون بالفرسان؟



ظلّ «ثابت» يبحث لنفسه عن مخرجٍ يمضي به بعيداً عن حياته تلك، فراح يجلس منفرداً خارج الخيمة ويحلم بغزوات وهمية يشنّها على القبائل الضاربة في الصحراء وبغنائم باذخة وسبايا كثيرة يعود بها من غزواته ومعاركه.

وفي غمرة أحلامه تلك سمع أمّه تصرخ به قائلة:

- ويلك ياثابت، أما زلت تجلس في ركنك كأنك شيخ كسيح؟

- وماذا تريدينني أن أفعل؟

- إمضِ مع اخوتك وهاتِ لنا شيئاً نتقوّت به.

- وما الذي أستطيع أن أجلبه لك من هذا القفر الموحش؟

- خذ هذا الجراب واجمع لنا من ظهر الوادي شيئاً من الكمأ.

وقام «ثابت» متثاقلاً فأخذ الجراب من يد أمه ومضى لا يلوي على شيء، وسمعته وهو يبتعد عنها يدمدم بشيء لم تفهمه. إنها تعرفه جيداً وتعرف سبب تبرّمه وغضبه، فهو يأنف من أن يفعل ما يفعله اخوته الآخرون فيقضي نهاره يتجوّل فوق التلال باحثاً بين الصخور والسقوف عن الكمأ وبيض الطيور والجذور الطرية.

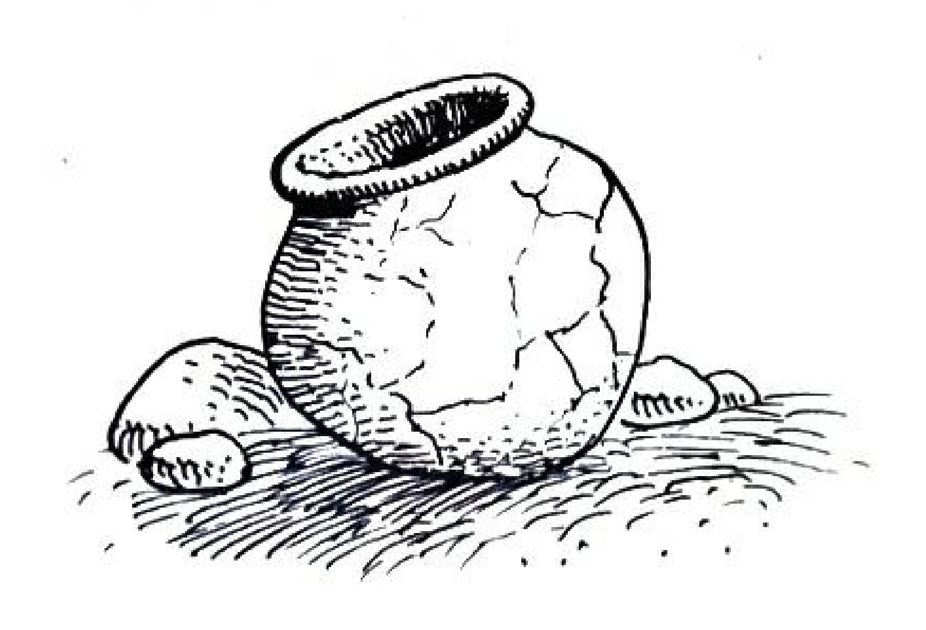
لقد رأته مراراً وهو ينظر شزراً الى اخوته حين يعودون من جولاتهم تلك. لم يكن يقول لهم شيئاً ولكن نظرته كانت تحمل الكثير من الاستصغار والأحتقار، وحين تضع أمامه بعضاً من ذلك الطعام كان يغادر الخيمة صامتاً، مكفهرّ الملامح.

في تلك اللحظة أحسّت الأم ان ابنها قد غيّر مسلكه، وما دام قد أخذ الجراب ومضى فلا بدّ من انه سيعود حاملاً معه شيئاً يسدّ به جوعه، فقد مضت عليه أيام لم يتناول في غضونها شيئاً من الزاد، ولا بد من انه سيغيّر بعضاً من طباعه الحادّة وأنَفَته الصارمة فيصبح فتى طيباً، مطيعاً مثل اخوته الآخرين فالجوع وتعاقب الأيام القاسية كفيلان بأن يُذيبا كبرياه وغروره.

قضت الام جزءاً كبيراً من ذلك النهار بعمل وعاء من الطين، وقبل أن تكمله وتتركه ليجفّ عاد ابنها «ريش نسر» يحمل جرابه الصغير على ظهره، وبعده بزمن قصير عاد ابنها الآخر «كعب»، فانشغلت تعدّ لهما ولابنها الصغير «عمر» شيئاً من الطعام، فنسيت «ثابت» ولم يعد يهمّها أمره، فما دام قد خرج الى التلال فلا بد من عودته اليها بعد حين، وما إن بدات الشمس تميل الى المغيب حتى بدأ الخوفُ يساورها عليه وتذكرت انه خرج غاضباً، متبرّماً. تُرى لماذا لم يَعُدْ حتى الآن؟ هل شغله البحث هناك عن نفسه؟ أم عرض له عارض فمنعه من العودة؟ وماذا يكون ذلك العارض وهو الذي لا يحمل معه غير جراب بالٍ لا يساوي شروى نقير؟

وراحت الأم تلوم نفسها عمّا فعلته بابنها البكر وما كلّفته من عمل لا يجد في نفسه ميلاً اليه.

وبينما هي سارحة في خيالاتها بشأن ابنها «ثابت» سمعت «ريش



نسر» من خارج الخيمة يصيح:

ـ ها قد عاد «ثابت» ياامّ.

فعاد اليها الامان ولم تكلف نفسها بالخروج لملاقاته وسؤاله عمّا أخّره في البرية، وعمّا حمل لها في جرابه من أشياء.

وحين دخل الخيمة كان ما زال يحمل جرابه على كتفه وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة لم تستطع إبعاد الصرامة والقسوة عن ملامحه. واخذ الجميع ينظرون بدهشة الى الجراب الذي وضعه على الارض وقد أغلق طرفه بخيط.

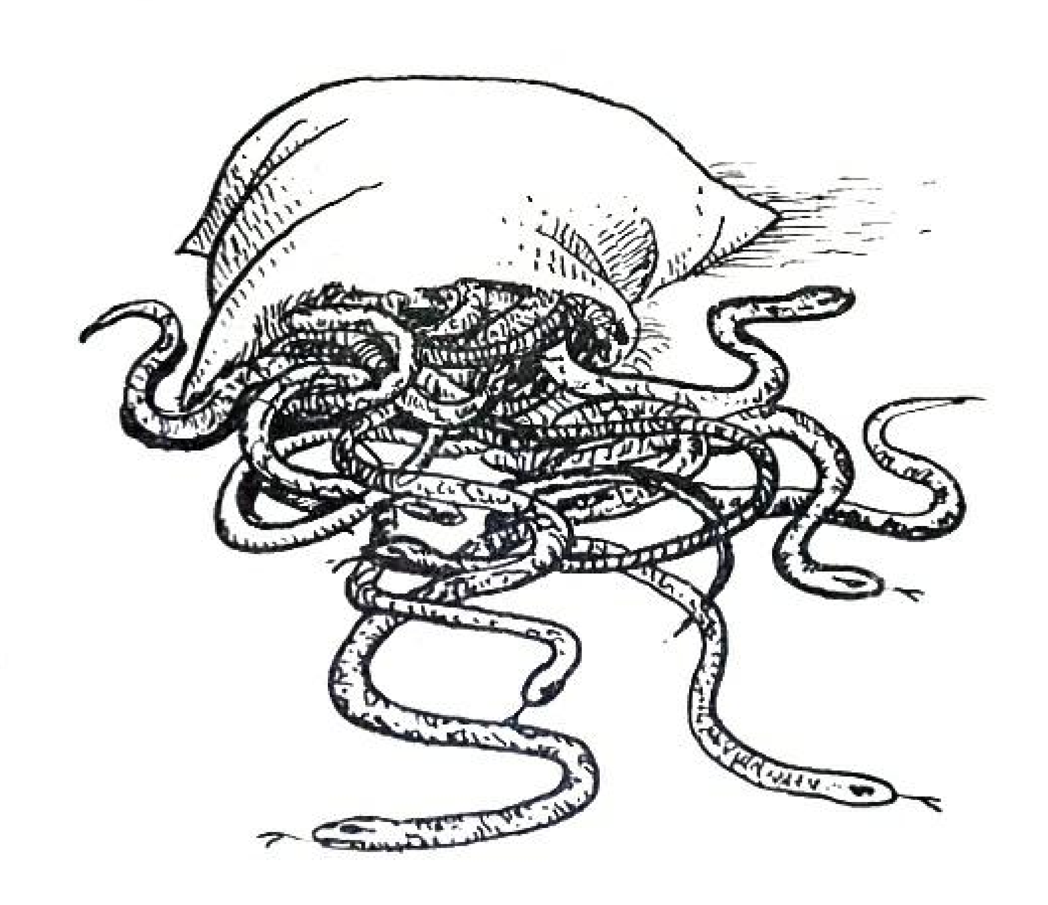
كان ثمة شيء يتحرك بداخله، والتقت العيون ببعضها مستفهمة، متسائلة... ما الذي في داخل الجراب؟ أرانب؟ درّاج؟ قطا؟

لابد من ان هناك شيئاً غير ذلك، لأن هذه الأحياء لا تتحرك هكذا، وانتظر الجميع من «ثابت» أن يفصح عن الأمر. أو يفتح عنق الجراب ويمدّ يده ليريهم ما الذي استطاع أن يصيده في البرية وهو الذي يخرج اليها لأول مرة؟



ولم يتركهم في حيرتهم تلك، بل مدّ يده وفك الشداد بهدوء وقد اتسعت ابتسامته وهو ينظر الى امّه واخوته صامتاً، وما هي إلّا لحظات حتى صرخت الأم، وفرَّ الجميع خارج الخيمة.

لقد انفلتت حزمة من الأفاعي وانسابت مسرعة لتختفي في زوايا الخيمة وتحت الفراش وأواني الطين والفخّار.



٢



تلك الليلة كانت آخر ليلة يبيت فيها «ثابت» في خيمتهم بين مضارب بني فهم. لقد فرّت أمه وفرّ اخوته الخمسة بعد أن فتح الجراب وانسابت الافاعي التي حملها معه في زوايا الخيمة، وامتنع الجميع عن العودة اليها إلّا هو، فقد نام من دون أن يعيرها شأناً، وفي الصباح صحا على ضجيج وصياح خارج الخيمة، وحين أطلّ منها وجد لفيفاً من الناس يقفون مبتعدين، حذرين، كأنهم ينتظرون حدثاً رهيباً يوشك أن يحدث.

ومـا إن التقت عيونهم بعيني ثـابت حتى ارتفعت ضجتهم واختلطت اصواتهم بعضها ببعض فلا يكاد يميّز منها شيئاً، ورأى امه واخوته بين الجمع يشيرون اليه بالخروج ومغادرة الخيمة خوفاً عليه من سمـوم الأفاعي المتربّصة في كل مكان من حوله.

وبالهدوء نفسه الذي اطلّ به عليهم عاد الى داخل الخيمـة وحمل جرابه معه ومضى.

لم تستطع امه أن تتبعه، ولم ينادِ عليه أحد من اخوته، بل ظلّ الجميع ينظرون اليه وهو يسير مبتعداً عن الحي من دون أن يلتفت اليهم.



كانت تلك بداية حياة جديدة عاشها «ثابت» فقد ظلّ عدداً من السنين وحيداً، مشرّداً ضائعاً في شعاب الوديان، ولم يكن يأتي الى الحي حتى يغادره من جديد، كأنه مطارد تطلبه القبائل في شتى بقاع الجزيرة.

ولم يكن أحد يدري كيف يعيش؟ وأين ينام؟ ومع من يُمضي أيامه تلك؟ ولكن بعد سنوات راحت القوافل والركبان تتحدث عن رجل يطلع على الفرسان من الكهوف والمغاور فيهاجمها راجلاً ويفتك بها ويسلب منها ما يشاء ثم يعود.

حتى صار المرور عبر وادي النمور محفوفاً بالمخاطـر، ليس بسبب النمور والفهود والذئاب التي يزخر بها ذلك الـوادي، بل بسبب هـذا المخلوق العجيب الذي سكن الوادي وجعله محرّماً على كل قافلة مارّةٍ من هناك أو فارس يـريد أن يختصر الطـريق الى أحياء العـرب الاخرى المنتشرة في ظهره وعلى النجود القريبة منه.

وكانت تلك الليلة ـ بعد سنوات من مغادرته الحي ـ ليلة لا يمكن أن تُنسى، فقد ظلت قبيلة «فهم» وجيرانها من هذيل وأُزد وبُجيلة يتحدثون بها بعد ذلك مدة سنوات طويلة، فقد رأوا بأعينهم ما فعله «ثابت» وما حمله معه تلك الليلة وظلّ شاخصاً قرب خيمة أمه «أميمة» عدة أيام قبل أن ينتن ويتفسخ.

فقد كانت عادته أن يزور أمه عند منتصف الليل فيجلب معه ظبياً وبعض ما غنمه من مال ومتاع مما يسهل حمله، يقدمّه هدية لها ولبعض فقراء الحي، فيوقظهـا ويجلس معها ومـع اخوتـه ساعـة من الوقت يتمتعون بالشواء والحديث الشيق، ثم يغادر الحي قبل انبلاج الفجر عائداً الى كهفه في وادي النمور بعيداً عن أحياء العرب الأخرى.

في تلك الليلة قدم كعادته بين مدة ومدة وما إن دخل الخيمة والقى حمله الثقيل على الأرض حتى طلب من أمه أن توقد النار، وكان قبل ذلك

يوقظ إخوته واحداً واحداً مبتدئاً بأخيه الصغير «عمرو» ثم يأخذهم خارج الخيمة ويوقد النار هو نفسه وحين سألته لماذا لا يوقظ اخوته ليروه وضع يده على فمها وطلب منها أن تصمت ريثما يخفي هذا الذي جلبه معه.

وسألته بلهفة: ما الذي تودّ أن تخفيه يا ثابت؟

- لا شيء، سوف تعرفين ذلك بعد قليل.

وحاولت أمه وعلى ضَوء النجوم الخابي أن تحدّق في هذين الحملين اللذين طرحهما ابنها وسط الخيمة، فلم تَرَ غير ظبيين كبيرين منطرحين على الارض ولا أثر للحياة فيهما. فتساءلت ثانية مندهشة:

- لا أراك قد حملت شيئاً يستدعي الأمر إخفاءه ياثابت... انهما ظبيان، نأكل واحداً هذه الليلة ونوزع لحم الآخر غداً على الجيران.

- سوف نأكل واحداً هذه الليلة.. فأظنكِ لم تأكلي لحماً منذ أيام.

- وما الذي سوف تخفيه؟

- هذا الثاني، وأشار بيده الى أحدهما.

- الظبي؟

- انه ليس ظبياً

- ماذا إذن

- سوف ترين.

- ولماذا لا تقول؟. هل جلبت لي نمراً لكي تخيفني؟ ولكنني لن أخاف حتى لو كان نمراً، فاني أراه قد فارق الحياة، ولا خوف منه.

- اصمتي، انه ليس نمراً.

- ماذا إذن؟ هل قتلت رجلاً وجئت بجثته الينا؟

- ماذا تقولين يا أم؟ .... لماذا انتِ متعجّلة الى هذا الحد؟

وراحت امه تحدّق به وتمدّ يدها لتمسّه، وما إن فعلت ذلك حتى

اقشعرّ بدنها لمسه فقد كانت له حراشف خشنه لا هي بالشعـر ولا الصوف ولا الجلد، ولا شيء آخر مما راته او مسّته في حياتها الطويلة تلك.

في تلك اللحظة مدّ ثابت يده ليبعد امه عن الطريدة، وقال ضاحكاً:

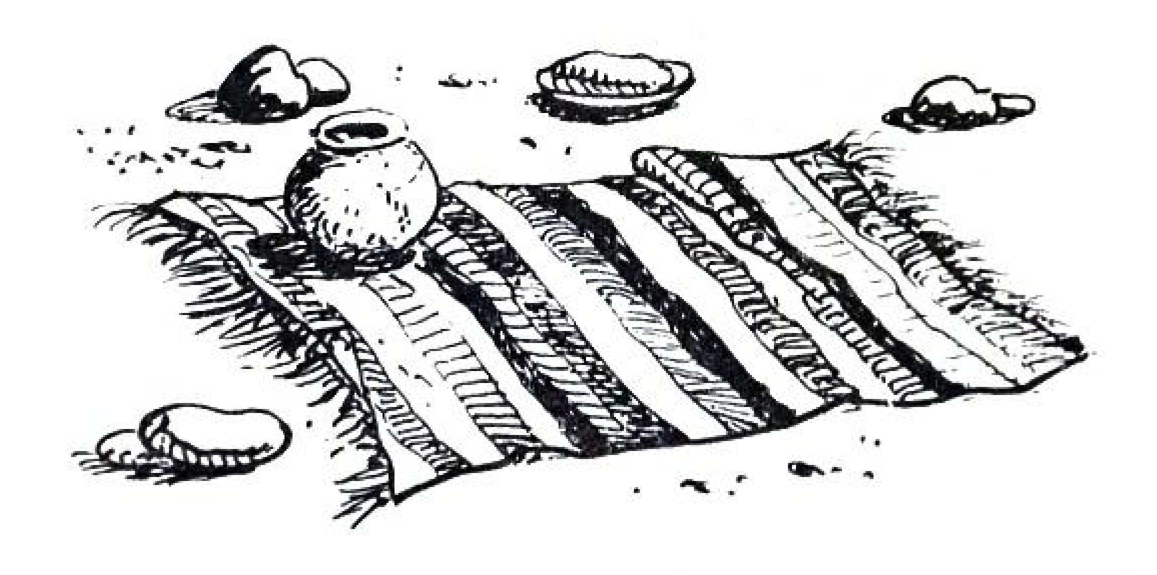
ـ لا تتعجّلي الأمر يا أماه.. لقد جئتك بشيء لم يَرَه العرب من قبل.

وكادت أمه أن تصرخ من الرعب ولكنها أخفت ذعرها وتذكرّت ذلك اليوم الذي عاد فيه ابنها من البرّية حاملاً معه الجراب المليء بالثعابين.

ترى ما هذا الذي لم يره العرب من قبل؟ وما الذي يودّ أن يخفيه ولا يسمح لأخوته أن يروه في ليلتهم تلك وهو الذي يعرف أن لقياه عندهم ومشاركتهم الأكل تعادل لديهم كل الأفراح والمتع الاخرى؟

ولم يترك «ثابت» أمّه على حالها تلك، تقف وسط الخيمة فزعةً مما يحدّثها به، بل مدّ يده وحمل تلك الجثة المخيفة ـ ثانيةً ـ وخـرج من الخيمة.

وحين عاد كانت أمّه ما تزال تجلس وسط ظلام الخيمة تفكر في أمر أبنها الغريب الأطوار، والحكايات التي يتداولها الناس عنه وتتناقلها أحياء العرب في كل مكان.



ـ الآن نوقظ «عمرو».

قال ذلك بصوت عالٍ كأنه يريد أن يوقظ اخوته كلهم مرةً واحدة، وفعلاً رفع «ريش نسر» رأسه عن الحصير أولاً وحين سمع صوت أخيه هبّ فرحاً، مرحِّباً به واختلطت الأصوات فصحا «كعب جِدار» ثم «ريش بلغب» و «لابواكي له» واخيراً رفع «عمرو» رأسه وسط الظلام كأنه يستفسر عن سبب هذا الضجيج المفاجىء داخل الخيمة، ولم يمهله أخوه ليعرف سرَّ ذلك، بل رفعه من تحت إبطيه الى الأعلى مرحِّباً به صارخاً بوجهه:

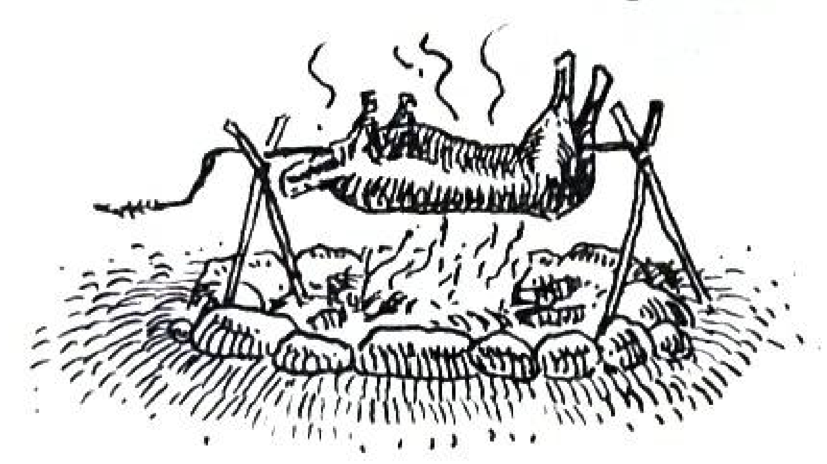
ـ كم تحب النوم أيها الذئب الصغير... لقد جئتك بفريسة طيبة ما زال الدم يقطر منها.

وتعلّق «عمرو» برقبة أخية وراح يتشمّمه كأنه حيوان صغير وجد أمه بعد فراقٍ طويل.



ولم يمضِ غير وقت قصير حتى صار الجمع كلـه خارج الخيمـة متحلّقاً حول النار وقد غطىّ لهبها جسد الظبي المحمول على السفـود ورائحة الشواء تملأ المكان فتبعث النشوة في الاجساد الهزيلة الجائعة المتلهّفة للطعام، من دون أن يعلم احدٌ منهم غير الأمّ شيئاً عن سرِّ ذلك الكائن الغريب الذي لا يبعد عنهم سوى أمتار قليلة.

في تلك الأثناء أغرت رائحة الشواء عدداً من كـلاب الحي فراحت تقترب منهم رويداً رويداً، خائفة، حذرة، كأنها هي الأخرى تخشى بطش هذا الرجل الذي عرفته صبياً طائشاً أذاقها من عصاه ضربات لا رحمة فيها، وها هو ذا أمامها الآن رجلاً غامضاً لا يُركن اليه. وحين رمى لها بعضاً من أمعاء الظبي وعظـامه راحت تتلقفهـا وتتعارك فيمـا بينها للحصول عليها. واستطاع أحدها أن يمسك بقطعة كبيرة ويهرب بها مبتعداً عن المكان، ومـا هي إلّا لحظات قصـار حتى عاد ذلـك الكلب منطلقاً، صارخاً صرخة ضارية لا هي عواء ولا هي نباح، وقد ترك قطعة اللحم وفرّ من أمام النـار متجهاً الى وسط الحي. وحـين سمعت بقية الكلاب صرخته الغريبة تلك تركت هي الاخرى اللحم الذي أمامها وفرّت، مذعورة خلفه، فذهل الجميع لهذا الحدث وقام «ريش نسر» من مكانه وقد أصابه الخرس لهول المفاجأة فهو في حيـاته لم يسمـع مثل هـذا الصوت يصدر عن الكلاب، ولم يرَ مثل هذا الجمع منهم يترك اللحم ويفرّ مذعوراً دونما سبب واضح.

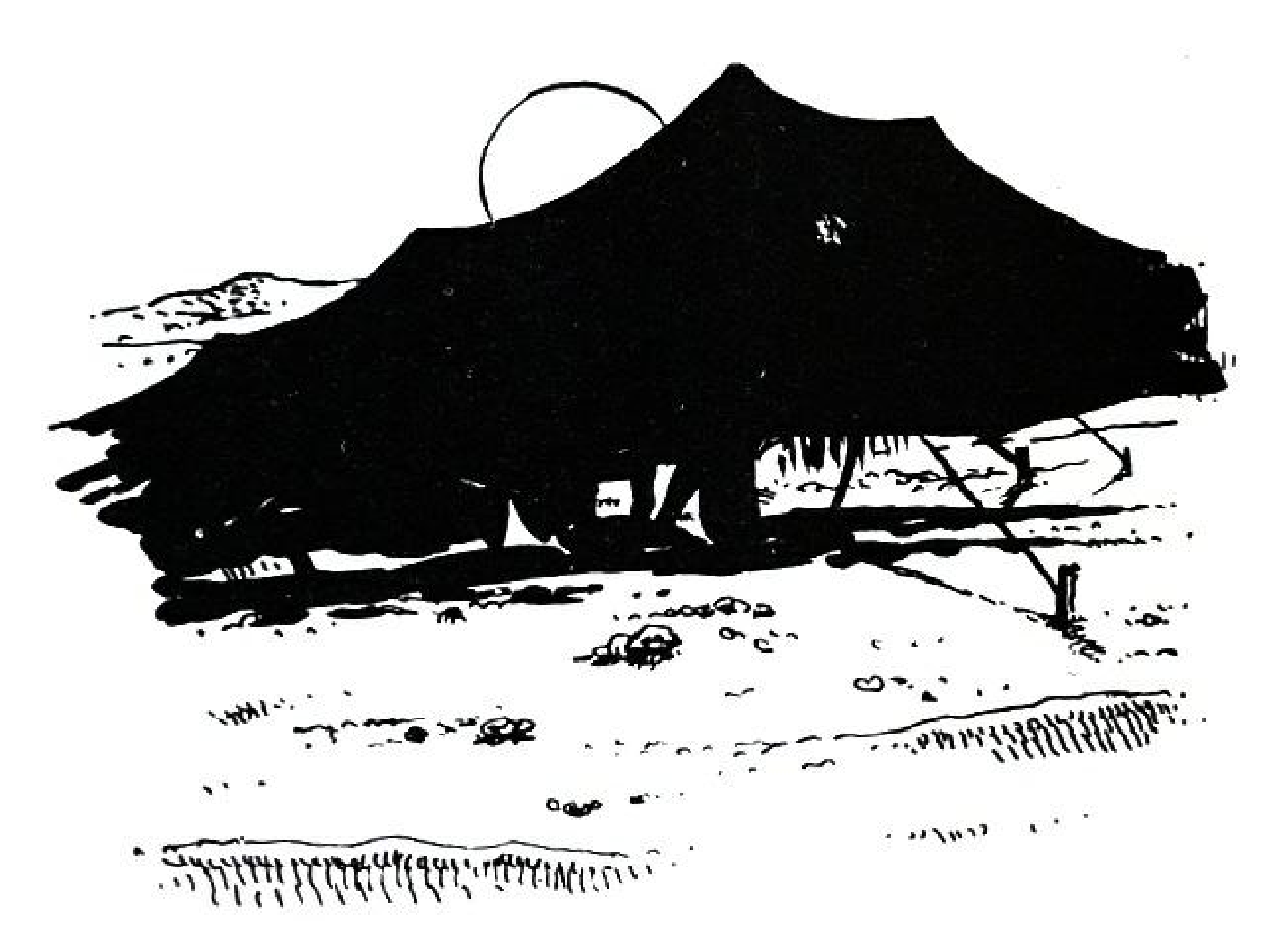


ولكن الأم على ما يبدو قد عرفت الأمر، فقد حدّقت في وجه ابنها «ثابت» كأنها تسأله تفسيراً لما حدث. ولكنها لم ترَ غير عينين جامدتين كأنهما عينا صقر وغير وجهٍ قاسٍ كأنه صخرة قُدَّت من جبل.

في تلك الليلة رجته أمه ألّا يتركها ويمضي حتى يطلع الفجر، وأن يأخذ معه هذا الذي جلبه، ولا يعود به. لقد تلبّسها الخوف وتغلغل في عظامها حين رأت ذعر الكلاب وسمعت عواءها الضاري وخشيت على أبنائها من رؤيته حين يصبح الصباح.



٣



طلع الفجر عليهم وما زالوا يأكلون ويتسامرون، وحين قام «ثابت» من مكانه عرفت أمه أن ذلك إيذانٌ بوقت رحيله، فوقفت هي الأخرى تنظر اليه متسائلة، متوسّلة لينقذها من المشهد الـذي بانتظـارهم، وأحسّ «ثابت» بما يشغل والدته تلك اللحظة فضحك ضحكة قصيرة وقال:

- سأريكم أيها الشجعان الوحشَ الذي قابلني أمس.

فقال «عمرو» بسذاجة:

ولكنك يا أخي تقضي ايامك كلها بين الوحش كما يقول الناس.

- ولكن هذا الوحش يختلف عن كل الوحوش، تعالوا نَرَهُ، انه الآن خلف الخيمة.

وتردّدت أمهم خائفة، فأمسكت بتلابيب أبنائها تريد أن تمنعهم من رؤية الوحش خشيةً عليهم من منظره المخيف، فوضع «ثابت» يده على راسها بحنوّ واحترام قائلاً:

- ليس الوحش مخيفاً كما تعتقدين يا أم، ثم انك لم تريه إلى الآن فلماذا هذا الذعر من جثة ميتة؟

وتحرك الجميع ببطء وخلفهم تسير امهم وهي اكثرهم رعباً وهلعاً، وتوقعت أن تجد الوحش وقد عادت اليه الحياة وجلس بانتظارهم متحفّزاً للوثوب عليهم والبطش بهم.

وما إن دلفوا خلف الخيمة حتى فاجأهم المنظر أمامهم.. جثة كبيرة لحيوان غريب لم يشاهدوا مثله من قبل.. الوجه وجه انسان قبيح وله عينان جامدتان كالزجاج ومن فوق جبهته يرتفع قرن واحد غليظ، وقد غطّى جسده شعر أسود كثيف، أما بطنه فبني اللون مغطى بحراشف سميكة، وقد أحسّ الجميع - ما عدا ثابت - بالرعب من منظر هذا الكائن المنطرح أمامهم، وأشدّ ما أخافهم فيه منظر وجهه الآدمي وقدماه اللتان تشبهان اقدام الانسان، أما يداه فقد كانت تنتهيان بمخالب حادة كمخالب النسر.

- ما هذا المخلوق يا أخي، وأين وجدته؟

قال ذلك «ريش نسر» من دون أن يقترب منه.

- هذا هو الغول... لقد قتل أخوك الغول ياريش.

- الغول!! وكيف قتلته؟



لقد دخل عليّ في الكهف فقتلته، حاول أول الأمر أن يغلق عليّ فوّهة الكهف بصخرة كبيرة. لم استطع تمييزه وظننته رجلاً لأنه كان يسير مثلي على قدميه، وحين اقترب لمحت عينيه الحمراوين المتوقدتين، وكان يصك بأسنانه ويهمهم بصوت بشري كأنه يتحدث اليّ فهجمت عليـه بالسيف ولكنه كان يبتعد ويراوغ كأي مقاتل، وبقيت هكذا بعض الوقت حتى كاد ينهكني ويجهز عليّ، وحين التصقت بجدار الكهف ظن انني قد تعبت فأقترب مني وقد كشّر عن أنيابه وبسط مخالبه الجارحة. في تلك اللحظة كان عليّ أن أهاجم وأضرب ضربتي القاتلة فأن أصابت فقـد نجوت وإلّا فسأكون بين يديه فريسة طيبة ليتسلّى بها ليلته تلك.

وما إن صار على بعد مترين حتى صرختُ صرخةً ضارية وضربتُ ضربتي بين عينيه. في اللحظة نفسها حاول أن يفلت ثانيـةً ويقفز الى الوراء ليتفادى الضربة ولكن الأوان قد فات، فقد دخل النصل بأكمله في عنقه ـوما هي إلّا لحظات حتى خرّ على الأرض ميتاً. ولو تأخرت ضربتي مقدار رمشة عين لأصابه السيف في بطنه، وكما ترون أن حراشف بطنه اقوى من الصخر ولا تخترقها أمضى السيوف.

كان الجميع ينصت مذهولاً الى «ثابت» وينقل نظره بين «الغـول» الملقىٰ أمامهم والغول البشري الذي وقف يسرد حكايته ببساطة وكأنها مجرد حادثة عابرة تحصل كل يوم وفي كل مكان.

لم يمضِ من نهار ذلك اليوم سوى ساعة واحدة حتى ضجّ الحي بأكمله وتجمعوا ينظرون الى ذلك الكائن الغريب الملقىٰ قرب خيمة «أميمة».

وانتشر الخبر مثل انتشار النار بالهشيم، فجاء الناس من الأحياء القريبة فالبعيدة وسار مع الركبان والقوافل حتى سمع به كـل من في الجزيرة.



وطارت شهرة «ثابت بن جابر» بين القبائل وأصبحت حكاية قتله الغول الحكاية التي تُروى في الليل والنهار، وصار اسمه وحده كافياً لأدخال الرعب في أقسى القلوب. فارتفعت منزلة قبيلة «فهم» بين القبائل وراح رجالها ونساؤها وأطفالها يفاخرون بطـون العرب كلهـا بفتاهـا الفاتك، الباسل، الذي سكن وادي النمور وعاش بين الوحوش حتى صار أشدّ منها فتكاً وبطشاً.



٤



لم تكن تلك الحكاية آخر ما تناقله الناس عن «ثابت بن جابر» فقد نُسجت حوله حكايات جديدة ودارت حوله قصص لا تقل غرابة عن قصة قتله الغول. فقد هوجمت إحدى قوافل التجّار وهي في طريقها الى الطائف، وتشتتت إبلها في الشعاب والوديان. وحين استطاع أصحابها جمعها ثانيةً كانوا قد فقدوا أربعة من الأبل، والغريب انهم لم يشاهدوا

غير رجل نصف عار يحمل بيده سيفاً ويعدو بين الجمال كأنه ذئب يهاجم قطيعاً من الأغنام. وما هي إلّا لحظات حتى نفرت الأبل من زعيقه وصياحه وتشتت جمعها وراحت تتلمس مهرباً في الوديان. ولم يستطع أحدٌ من رجالها أن يفعل شيئاً حتى اختفى الرجل مع الأبل الاربعة فبحثوا في كل مكان فلم يعثروا له على أثر.

وبعد أيام سمع الناس بالوليمة الكبيرة التي أقامها «ثابت بن جابر» لفقراء ثُمالة وهُذيل وبُجيلة حيث نحر لهم أربعة من الأبل وتركهم ينعمون باللحم وغادرهم إلى وادي النمور من دون أن يشبع بطنه من وليمته تلك.

ومرةً سمع امرأة في أحد أحياء العرب تشكو حالها وتعنّف أبناءها الذين يطالبونها بالطعام فلم يرتح له بال ذلك اليوم حتى اصطاد لها وعلاً وجاء يحمله على ظهره وجلس مع الصبية الصغار يشوي لهم اللحم ولم يتركهم حتى شبعوا وناموا.



كثر الحديث عن «ثابت بن جابر» وأحبه الفقراء من القبائل الأخرى وتناقلوا قصصه وأخباره، فقد ظلّ يهاجم قوافل التجار ويشتتها بين الشعاب ثم يقود الابل التي يغنمها ويمضي بها إلى أحياء العرب الفقيرة فينحرها هناك ويوزعها عليهم.

وقد كثرت غزواته تلك حتى ضجّ منـه الكثيرون وضمـروا له الشر وقرّروا الفتك به.

ولكن كيف الوصول الى «ثابت» وهو في مكمنه في أغوار وادي النمور؟ وكيف يحتالون عليه وهو الذي يطلع عليهم ثم يختفي مثل الخيال العابر، فلا يكادون يرونه يمرق من أمامهم حتى يكتشفوا انهم قد فقدوا ثلاثة أو أربعة من إبلهم المحمّلة بالمتاع؟

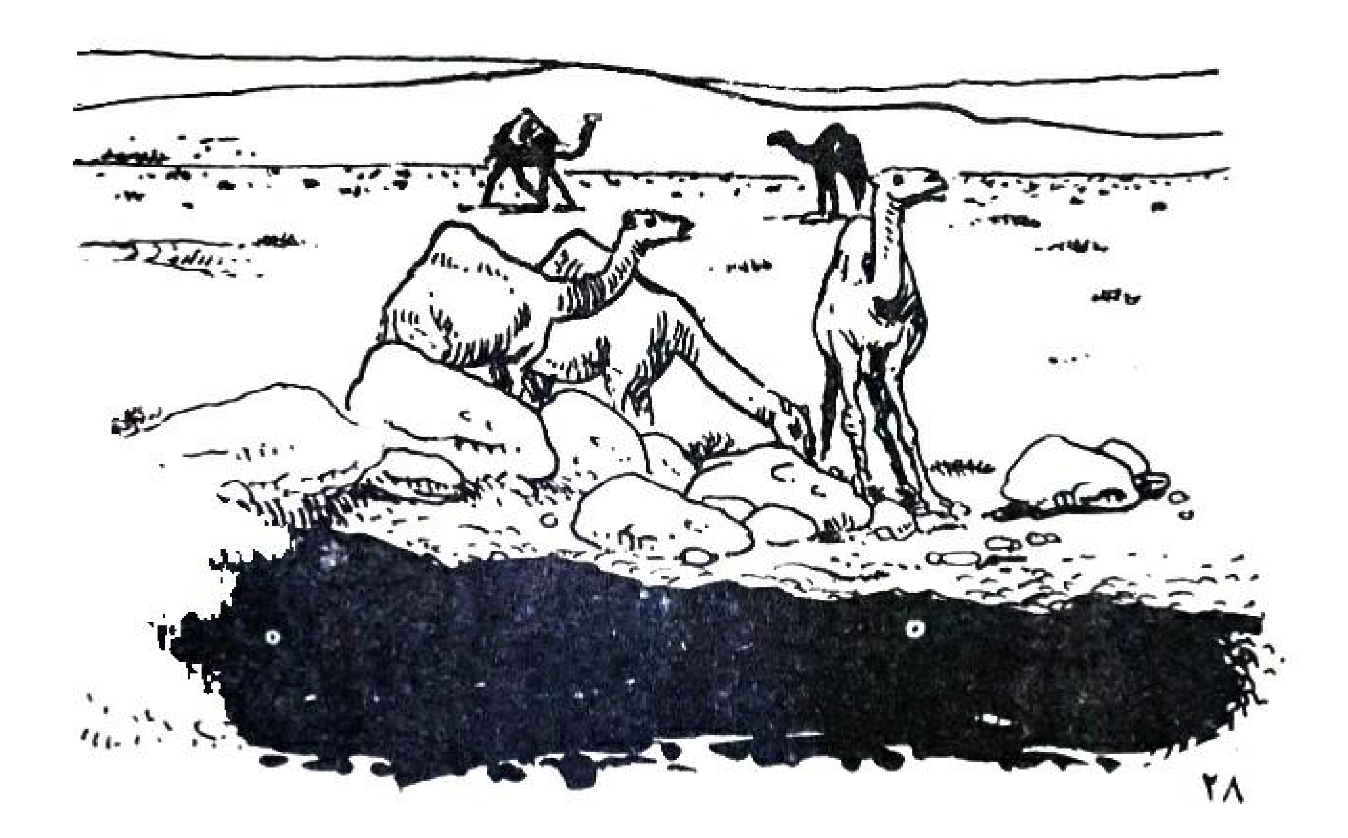
راح التجّار وأصحاب القوافل يفكرون بطريقة تخلصهم منه فأغروا به بعض الفرسان وأجزلوا لهم العطاء فراحوا يجولون بين أحياء العرب علّهم يعثرون عليه، وبثّوا عيونهم هنا وهناك علّهم يعرفون شيئـاً من أخباره، ولكن لم تكن من السهل مواجهة «ثابت بن جابر» فهو يتصرف كما يتصرف الذئب الجائع لا ترى منه سوى أثره على الارض، ولا يترك غير القطعان الفزعة المشتتة في الدروب.

ثم حاولوا معرفة أمره من إخوته وأبناء عشيرته، ولكن أحداً هناك لا يعين الأعداء على ابنهم ولا الغرباء على ابن جلدتهم، حتى لو كان هذا الابن فاراً، هارباً من أهله.

وأخيراً قرّ قرارهم على نصب كمين له في حلق الوادي، وكانـوا قد عرفوا انه الطريق الذي يسلكه حين يغادر وادي النمور عصراً ويعود اليه بعد منتصف الليل لينام.

كان كل شيء قد أُعِدَّ اعداداً محكماً بحيث لا يثير شبهةً ولا شكاً فأن اي خطأ في إعداد الكمين قد يؤدي بهم وبأموالهم إلى الضياع.

حين أطلّ «ثابت بن جابر» برأسه من أحد التلال فوجىء بالمشهد الذي أمامه، فهناك عدد من الجمال يرعى متفرقاً في حلق الوادي، كان المنظر بالنسبة له غريباً فليس هناك احد من الرعاة يجروٴ على المجيء الى هذا المكان طلباً للكلأ، وليس الوقت وقت رعيٍ، فالشمس تـوشك أن ترحل خلف الأفق، وما تبقى من الوقت لا يكفي للعودة الى أقرب حي من أحياء العرب الساكنة في ظهر الوادي. وأحسّ في قرارة نفسه بأن هناك فخّاً للايقاع به، فنقّل نظره الحاد في كل الاتجاهات ليرى إن كان هناك من يتخفّى خلف صخرة أو ربوة. وانسحب من المكان بسرعة وظهر في مكان آخر والقى نظرة أخرى على ذلك المشهد ثم انسحب وظهر في مكان ثالث لا يراه فيه أحد وحدّق في كل الاتجاهات فلم يرَ أثراً لأبن آدم. فتيقّن من أن الابل التي أمامه لا راعي لها، وانها –ربما– قد نفرت من احدى القوافل أو فرّت من مراعيها لسبب يجهله، وما اكثر الأسباب التي تجعل الابل



تفرّ وتضيع في الصحراء، يكفي أن يهاجمهما نمر جائع او قطيع من الذئاب فيدركها الخوف ويفلت زمامها فتهيم على وجهها في الفيافي، ثم تتجمع ثانية حين يزول الخطر.

«لقد جاءك رزقك هذا اليوم ياثابت من دون ان تكلف نفسك مشقة البحث عنه»

هكذا خاطب نفسه وهويستعد للهبوط اليها وسوقها الى مكمنه في بطن الوادي.

اختار النقطة البعيدة عن الابل وهبط زاحفاً على بطنه، وبين آونة وآونة يلتصق بالارض ويضع اذنه عليها ويتنصّت، فباستطاعته ان يسمع حفيف الثياب وخطوات الرجال وهم يسيرون على الرمل من مكان بعيد. ولكن شيئاً مريباً لم يصل الى اذنيه. لقد ترك سيفه هناك خوفاً من أن يعيقه أو يلتمع فيكشف موضعه، فأن أيَّ رامٍ يستطيع أن يطلق عليه سهماً فيرديه قتيلاً من وراء التلال.



مضى الوقت بطيئاً وما زال «ثابت» يزحف على بطنه مثل لص متدرّب حتى وصل الى الأبل.

ماذا يفعل الآن؟ أيقف على قدميه ويقودها بعد أن تأكد من خلو المكان من عين تراقبه أو شخص يتربص؟ أم يفرقها وينظر ما يكون من أمرها وأمر منْ جاء بها الى هذا المكان وهو الذي اعتاد تفريق الابل كلما نوى هجوماً أو طلب مغنماً؟

فكرّ بهدوء وهو مازال ملتصقاً بالأرض كأنه أحد الزواحف الثقيلة، ولكنه ظلّ حذراً متيقظاً لكل حادثٍ قد يحدث فجأةً وعلى غير انتظار. وقرر أخيراً أن يتركها بحالها ويعود الى مكانه كما جاء.

وأعاد الكَرَّةَ ثانيةً... حدَّق من مكمنه في الارض التي أمامه حيث تنتشر الابل، وهبط زاحفاً على بطنه وقد حمل معه سيفه هذه المرة بعد ان أعاده إلى غمده، وبالهدوء والحذر نفسه قطع المسافة التي تفصله عن الأبل، ثم أمسك برقبة أحدها وسار به حاثاً البقية على اللحاق به. وانشغل معها قليلاً عن النظر فيما يدور حوله، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، فقد احتمى بين اثنين منها ليدرئا عنه خطر الرماح والنبال إذا ما صُوِّبت اليه من مكان بعيد.

حين وصل «ثابت بن جابر» الى مكمنه في بطن الوادي مع غنيمته لم يشعر بالرجلين اللذين سارا خلفه، فقد كانا أشدّ حذراً منه واكثر إتقاناً في إحكام خطتهما للايقاع به. لقد أمسىٰ الآن تحت نظرهما... رأياه وهو يعقل الجمال ويبركها ثم وهو يقوم ويهيء لنفسه شيئاً من الطعام كان قد خبأه في مكانٍ ما هناك.

وحين انتهى من كل ذلك بدأ الظلام ينتشر ويعمّ الوادي كله، فالتفّ ثابت بعباءة من الوَبَر واستكان كأنه يريد أن ينام.

وحين حاول أحدهما أن يفتح فمه ليقول شيئاً لرفيقه وضع هذا يده على فمه مشيراً اليه بالصمت فأن أية همسة من ذلك البعد كفيلة بأن تثير ذلك الرجل الملتف بعباءته وتحوّله الى وحش كاسر.

مضى جزء من الليل فتيقّن الرجلان ان «ثابت بن جابر» قد قرّر تلك الليلة الاّ يغادر الوادي وان يبقى مع غنيمته الثمينة حتى يرى ماذا يفعل بها في الصباح.

وفي منتصف الليل كان كل شيء من حولهما يغرق في الظلام فشعرا لأول مرة بجسامة ما أقدما عليه. إنهما فاتكان جسوران وقد وقع الاختيار عليهما لبسالتهما وجرأتهما ولما عرفا به من عزيمة وإقدام في ميادين القتال، ولكنهما لم يوضعا بمثل هذا الموقف من قبل، وما إن وجدا نفسيهما في ذلك الوادي المخيف حتى انتابهما الذعر وأوشكا أن يعودا من حيث أتيا لولا الحياء والخوف من أن يتندّر بهما الآخرون فقررا أن يحسما الأمر بسرعة فيقتلاه ويعودا الى الحي.

إستلاّ سيفيهما ومضيا منحنيين بأتجاه المكان الذي استلقى فيه «ثابت»، لم يشعر أحدهما وهو يلتصق بالآخر انهما كانا يرتجفان من الهلع. لقد فقدا حذرهما وراحا يسرعان لأنجاز المهمة كي يعودا من دون إبطاء. لقد كان من رأيهما أول الأمر أن يأسراه ويقوداه موثقاً بالحبال بائساً ذليلاً ولكنهما قررا الآن أن يقتلاه ويتخلصا منه وهو في مكانه ملتفاً بعباءته هناك. وحين وصلا الى المكان كان ضوء النجوم كافياً لأنارة الطريق اليه، فوقفا فوق رأسه وقد استعادا شيئاً من شجاعتهما التي غادرتهما حين حلّ الظلام في الوادي، فرفعا سيفيهما بوقت واحد وهويا عليه بكل مالديهما من قوة.

في تلك اللحظة ارتجّ الوادي بصرخةٍ مدوّية، مرعبة أطلقها «ثابت بن

جابر» وقد أمسك بسيفه وهو يقف خلف الرجلين الذاهلين اللذين اعتقدا انهما قد مزّقاه بتلك الضربة المميتة.

وحين التفتا الى الخلف افزعهما منظره وهو شاهرٌ سيفه كأنه كائنٌ من عالم الجنّ الذي طالما سمعا عنه في الحكايات. ألم يقتل هو نفسه الغول ويأتي به الى مضارب قومه؟ ألم يسكن وحيداً في هذا الوادي الذي لاتسكنه إلا الوحوش؟

كيف فكرّا بهذه المغامرة الخاسرة إذن؟ وكيف حملتهما اقدامهما الى أرض الخراب ومغاور سكان الجحيم؟

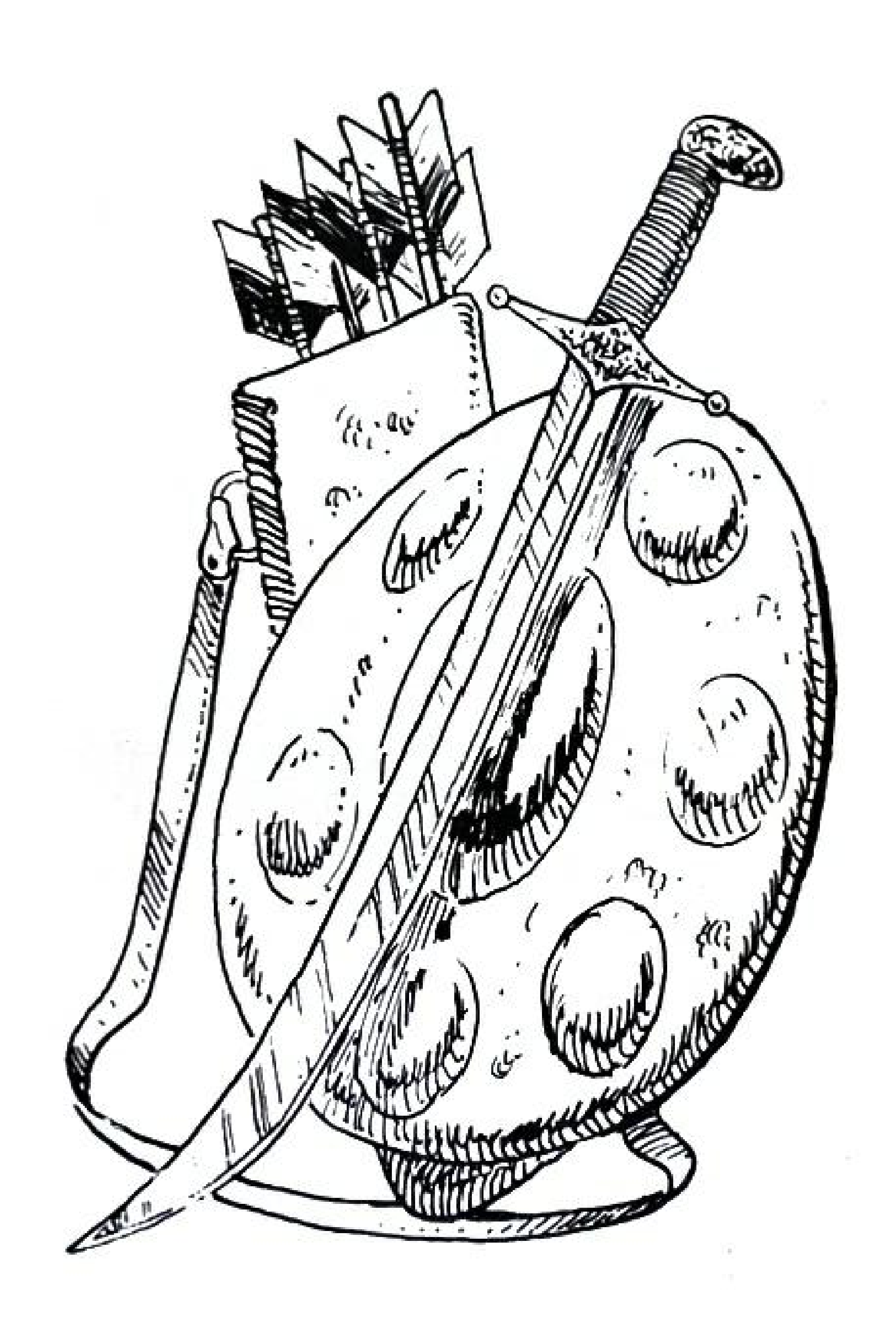
وقبل أن يعودا الى رشدهما ويستعيدا صوابهما من إثر ما حدث، كان «ثابت بن جابر» قد أحكم وثاقهما وتركهما منطرحين على الارض حتى الصباح.





وفي الصباح عرفا كل شيء، لقد خدعهما هذا الفهد الأرقط.... جلس قبالتهما وسرد لهما الحكاية كاملةً. كيف اكتشف الفخ؟ وكيف عـرف مكمنهما وتصرّف كأنه لم يعرف ولم يكتشف شيئاً؟ وكيف أوحى لهما بـالبقاء تلـك الليلة في وادي النمـور، فألتفّ بـالعباءة لكي يـرياه من مكمنهما؟ ثم كيف غطّى الصخرة التي خلفه بتلك العباءة وانتقل هو الى مكان آخر، وحين صارا فوق رأسه اعتقدا انه هو النائم الملتف بعباءته فضرباه تلك الضربة المميتة ولكنهمـا كانـا قد هشّمـا سيفيهما بتلـك الصخرة الصمّاء.

ثم حصل ما حصل وسمعا صرخته المدوّية الضارية قبل أن يوثقهما بالحبال.



٥



وقف «ثابت» قرب أسيريه وهما موثقـان بالحبـال منطرحـان على الأرض لاحول لهما ولا قوّة، وظل يحدّق فيهما وهما صامتان ينظران اليه كأنهما يفكران معه فيما سوف يؤول إليه مصيرهما. لقد جاءا لقتله ورأى بعينيه كلاً منهما وهو يرفع سيفه وينقضّ به عليه، ولكنَّ ذكاءه وحيلته

هما اللذان أنقذاه من الموت المحقّق. تُرى ماذا ينتظران بعد الذي فعلاه معه وهو الفاتك الجريء الذي لا يرحم؟

أينتظران الرحمةَ والعفو؟ أم البطش والقتل جزاءً على ما اقترفاه بحقّه؟

أراد ثابت ان يعرف منهما ماذا ينتظران منه، وما الذي يستحقّان من عقوبة؟ فقال يخاطبهما.

ـ ماذا تَريان إني فاعلٌ بكما الآن؟

فلم يُجب أحد منهما بشيء، وظلّا جامدينِ صامتينِ كأنهما الصخر الأصمّ الذي ينتشر على السفوح وفي الوديان.

فأعاد سؤاله ثانيةً بصيغة أخرى

ـ ماذا تريدان أن أفعل بكما الآن؟

ـ إفعل ما يحلو لك فالأمر لدينا سواء.

ـ الم تخَفْ من هذا السيف وهو يحزّ رقبتك حزاً؟

ـ وهل كنت أنتظر غير أن أحزّ رقبتك أو تحزّ رقبتي حين جئت الى هذا الوادي اللعين؟

والتفت «ثابت» الى الأسير الثاني قائلاً:

ـ وأنت أليس لديك جوابٌ آخر؟

فأجاب وقد حدّق بعيني آسره بقوة وثبات:

ـ وهل تنتظر مني أن أتوسّل اليك لتفك وثاقي فأمضي إلى الديار فرحاً مستبشراً بالسلامة؟

ـ أهكذا إذن لا تشتريان حياتكما حتى ولو بكلمة رجاء واحدة؟

ـ أنا أحَبّ اليّ وقع السيف على رأسي من وقع كلمة مثل التي تريد من فمي على أذني.

ـ لقد اخترت الموت إذن... وأنت؟

ـ لقد اخترت ما اختار صاحبي.



وصمت «ثابت» هنيهة من الوقت راح يفكر فيها بعزة هذين الرجلين وأنَفَتهما وهما أسيران في هذا الوادي السحيق حيث لا أمل لهما بالنجاة. فشعر إزاءهما بالألفة والود ونسي ما بدر منهما ليلة أمس، وتمنّى من كل قلبه أن يكون لديه أصحاب مثل هؤلاء، يألفهم ويألفونه ويشاركهم لقمة العيش في هذا القفر الموحش فيأنس اليهم ويأنسون اليه.

ثم قطع صمته قائلاً؟

ـ اظنكما تعرفان ان «ثابت» لا يقتل أسراه فقلتما ما قلتماه من دون وجل أو خوف ؟

ـ ولماذا لا تقتل أسراك وقد جاءا يبغيان قتلك؟

ـ لكني أستطيع على أية حال رميكما للوحوش التي يعجُ بها هذا الوادي.

ـ إفعل ما يريح قلبك ويزيل عنه هذه الغمّة السوداء التي حلّت فيه أمس.

ـ وإذا اخترتُ حلاً آخر لا يودي بكما ولا يلحق بكما العار فماذا تقولان؟

ـ وما هو هذا الحل؟

ـ أن نبعث إلى أهلكما مَنْ يأتي لكما بالفدية.

فضحكا مرة واحدة كأن ما قاله مُلحة يتندّر بها في ذلك الموقف العصيب.

استغرب «ثابت» من ضحكهما بوقت واحد واستعاد في ذهنه ما قاله علّه يجد عذراً لهما في الضحك، فلم يرَ في قوله ما يضحك فتساءل باستغراب:

ـ وهل في الأمر ما يدعو الى الضحك؟

ـ نعم، كأنك لا تعلم أننا وحيدان، منقطعان، لا أهل لنا ولا عشير.

ـ كيف؟ هل هناك في بوادي العرب وتخوم الجزيرة من لا أهل له؟

ـ نعم.. نحن من هُذيل، ولكن لو علمت هُذيل بما حلّ بنا لأعانتك على قتلنا والخلاص منا.

ـ وهل نبذتكما هُذيل وتنكرت لكما؟

ـ ونحن أيضاً نبذناها ولا نحتمي بها.

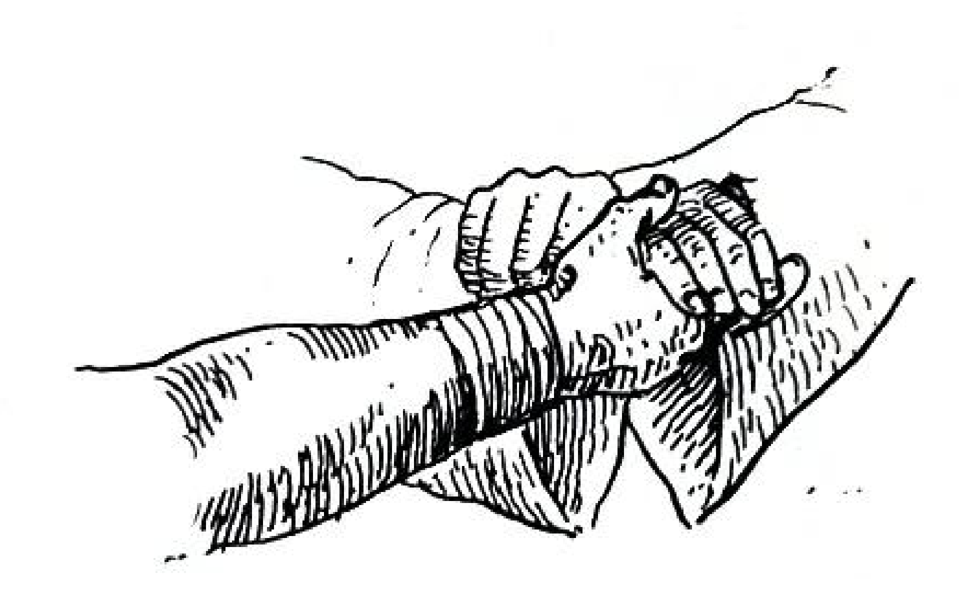
وما إن سمع «ثابت» ذلك حتى انحنى عليهما وفك وثاقهما من دون أن ينبس بكلمة واحدة، ثم خفّ الى أحد المغاور القريبة وحمل وعائين فيهما شيء من الزاد والماء ووضعهما امامهما وجلس قبالتهما بسكون.

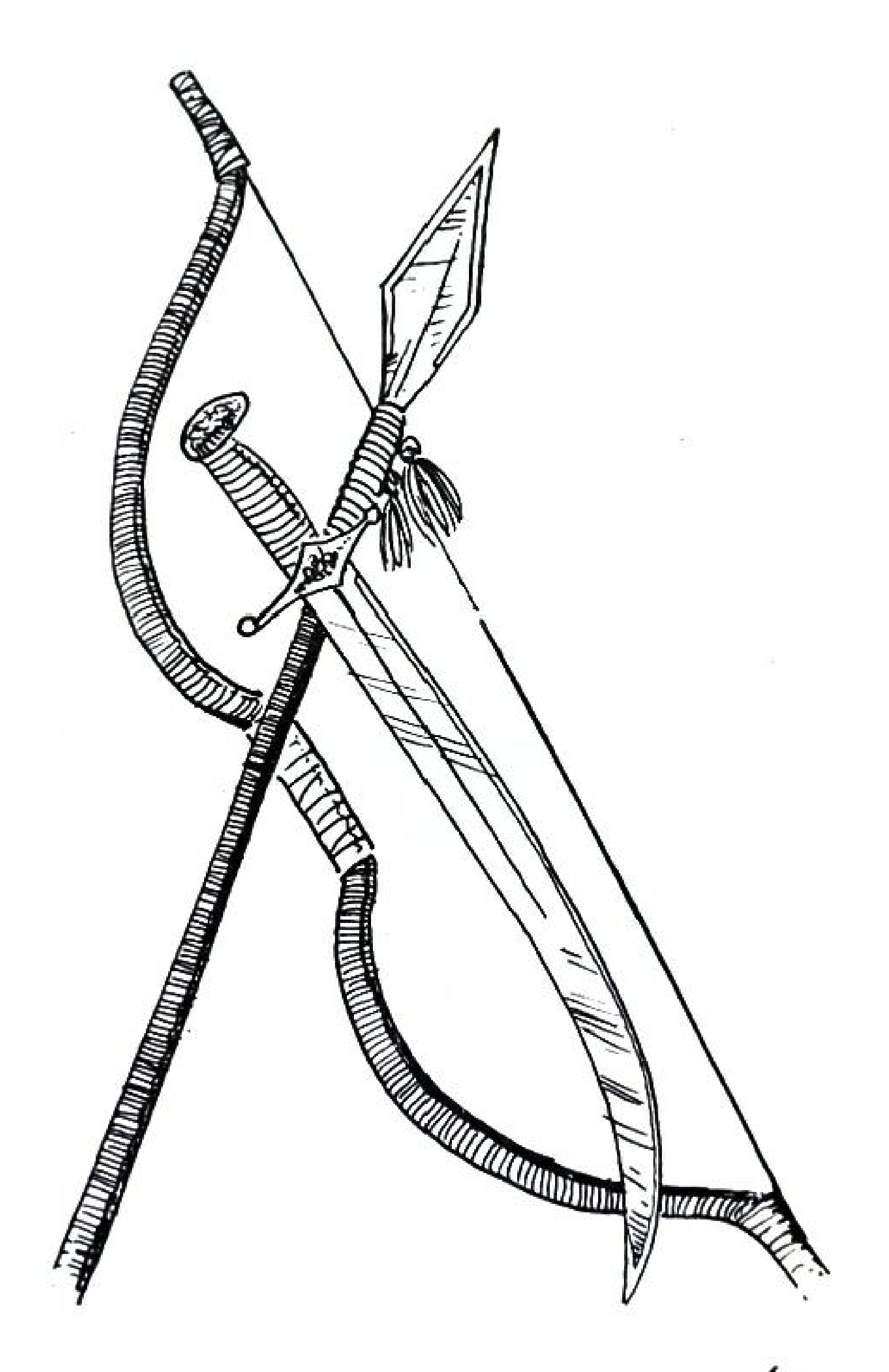
راح الرجلان ينظر احدهما الى الآخر بـاستغراب، ولكنهمـا فهما بسرعة سرّ ذلك التصرّف الغريب، وقبل أن يمدّا أيديهما للزاد والمـاء انبرى احدهما قائلاً:

- ما الذي دعاك الى ذلك؟

- لقد رأيت شبيهاً لي فأحببت الاّ اكون لئيماً، وانا الآن اعرض عليكما صحبتي فأن وجدتما فيها خيراً فهذي داري المنقطعة داركما وهذي كفي أمدها اليكما لنكون اخوة.

تأثر الرجلان لما قاله «ثابت» ومدّا كفيهما بوقت واحد وتعاهدوا على الود والأخاء.









ظلَّ التجار ينتظرون في الطائف عودة عُتبة وسَلَمَة من وادي النمور يحملان معهما جثة «ثابت بن جابر» إن كانا قد قتلاه، أو يقودانه موثقاً بالحبال، مشدوداً على ظهر أحد الجمال إن كانا قد استطاعا الاحتيال عليه وأسره. ومضت الأيام ولا أثر لهذين الفارسين ولا للجمال التي

حملتهما لكي تكون الفخ الذي سوف ينصبانه هناك في حلق الوادي.
وبعد مضي سبعة أيام تيقنوا من انهما قد قُتلا على يد ذلك الفاتك الجريء
فراحوا يفكرون بسبيل آخر للخلاص منه.

لقد أصبح الأمر شاقاً على تجّار الطائف، فليس من السهل تغيير طرق القوافل بسبب رجلٍ واحدٍ ظلّ يتعرّض لها كلما عبرت التلال مصعدة إلى المدينة، وليس من السهل أيضاً مضاعفة الحراس والمرافقين ما داموا يقدّمون هباتٍ مجزية إلى سادة القبائل والأحياء التي تمرّ تلك القوافل في حماها ومرابعها.

فماذا تراهم يفعلون للخلاص من هذا المأزق؟

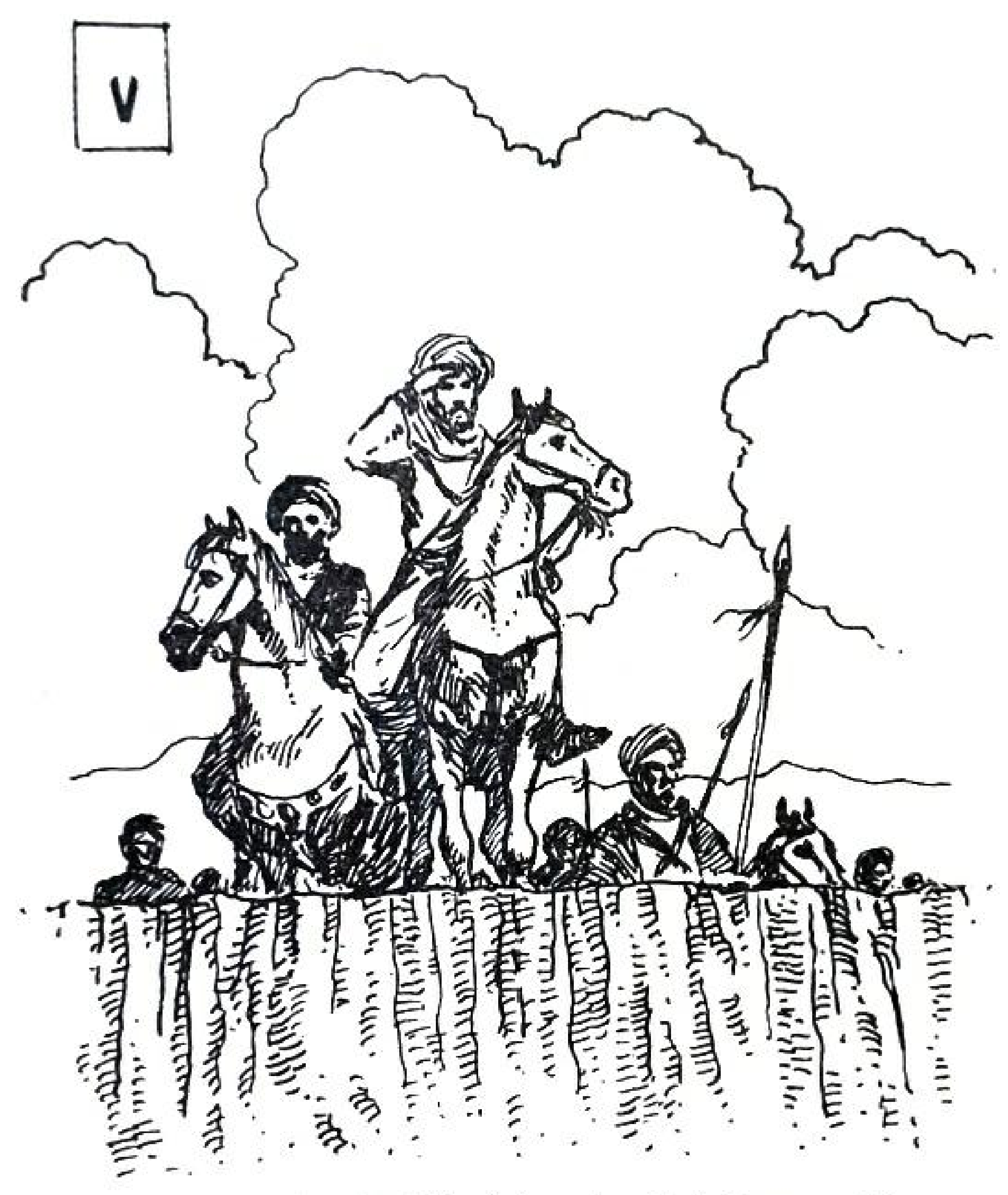
راحوا يقلبون الأمر على كل الوجوه، واخيراً توصلوا الى رأي... أن يرسلوا إليه أحداً يصاحبه ويعيش معه ثم يحتال عليه ويقتله في مكمنه.

ولكن من أين لهم بهذا الذي يرضى بهذه المغامرة الخطيرة؟ وإذا كانوا قد استطاعوا استئجار عُتبه وسَلَمة، وهما لصّان فاتكان هاربان من اهلهما، فمن أين لهم بالفاتك الجريء الذي يستطيع أن يلجَ عرينَ الوحش ويتآخى معه ثم يحتال عليه ويفتك به؟

دام البحث عن هذا الرجل وقتاً طويلاً، ثم فجأةً وجدوا ضالّتهم في «علقمة بن الحارث الأزدي» وكان فتى لاهياً، عابثاً لا يعرف غير اللهو والصيد والفروسية. وحين طُرح عليه الأمر استملحه لما فيه من عبث ومغامرة ولهو، ولم يدر بخلده أبداً انه ذاهب الى وادي النمور لمقابلة قاتل الغول «ثابت بن جابر»

وحين أخبروه بكل ذلك لم يرمش له جَفْن ولم يتردّد لحظة واحدة، بل وافق على الفور من دون أن يعرف حتى المكافأة التي سوف يتلقّاها منهم.

٧



شاعت بين فقراء الحجاز وتهامة حكايات تلك الولائم التي يقيمها «ثابت بن جابر» وصاحباه عتبه وسَلَمة في كل مكان، وراحوا ينتظرون ظهوره بينهم كل صباح وهو يوزع لحم الجزور على الجائعين والطالبين من الأطفال والنساء والشيوخ. وكان يختار البطاح القريبة من الأحياء

فيوقد النار وترتفع السنة اللهيب والدُّخان ويضوع المكان برائحة الشواء المثيرة. وما إن يعرف رجال القبائل ورؤساؤها حتى يخفّوا الى المكان مسرعين لملاقاة هؤلاء الثلاثة الذين بدأت كل القبائل تطلبهم وتسأل عنهم، إما طلباً للثأر أو طمعاً بالمكافآت المجزية التي رصدها التجار لقتلهم والخلاص منهم. ولكن ما إن يصلوا إلى هناك حتى يجدوا المكان خالياً إلاّ من الطاعمين من الناس.

كانوا يظهرون ويختفون من دون أن يأخذ ذلك منهم وقتاً يُذكر، ولم يرهم أحد على فرس أو ناقة بل كانوا يعبرون الفيافي والبطاح راكضين خفافاً، سراعاً، يطوون الارض طياً كأنهم عصبة من الفهود المطاردة لا ترى إلاّ خيالهم يمرق من أمامك ويمضي عابراً نحو الأفق البعيد.

وازداد خطرهم على مرّ الأيام خاصة حين لحق بهم «الشَنفرىٰ» «وابن برّاق» وهما فاتكان، كاسران، لا يقلان فتكاً وشراسة عن ضواري ذلك الوادي المرعب وعن وحوشه المفترسة الضارية.

واتسعت دائرة الخطر على التجّار وأصحاب الإبل والقوافل، كما اتسعت الولائم التي يقيمونها مجاناً لكل الناس. وكلما ازداد حقد اولئك عليهم إزداد حب الفقراء لهم والتغني ببطولاتهم وأمجادهم. وراحوا يغيرون على الإبل في مراعيها وعلى أحياء العرب في أباطحها ونجودها فيقودون الغنائم والأسلاب متجهين بها إلى أغوار الوادي، حتى صار أمرهم شاقاً ودرء خطرهم عسيراً على الجميع.

وحين اجتمع نفرٌ من فرسان الأزد وهُذيل وثُماله وخَثعم وبُجيلة وقرّروا غزوهم في مكامنهم في شعاب الوادي فاتحوا قبيلة «فهم» لنشاركهم في هذه الغزوة، فسمعت أمه «أميمة» بذلك وراحت تعاتب قومها وتعيب عليهم نصرة الغرباء على ابنهم قائلة:

- أتقطعون حبل من رفع اسمكم بين القبائل ومرّغ انوف أعدائكم بالتراب؟



– ولكنه تأبط شراً يا امرأة وقطع حبلنا قبل أن نقطعه.

قال ذلك سيدٌ من سادة «فهم»

فردت عليه بحزم:

ـ أهـو الذي قطـع حبلكم؟؟ وما زالت عطـاياه تـردكم وهدايـاه تملأ مضاربكم؟

– ولكنه ألَّب علينا القبائل، ونخشى أن نفتح أعيننا ذات يوم فلا نجد من ينصرنا ويقف معنا بين القبائل.

ـ وكيف تريدون أن ينصركم الأبعدون وأنتم لا تنصرون أخاكم على أعدائه؟ ... إن لم تستطيعوا نصرته فلماذا تكونون عوناً لأعدائه عليه؟

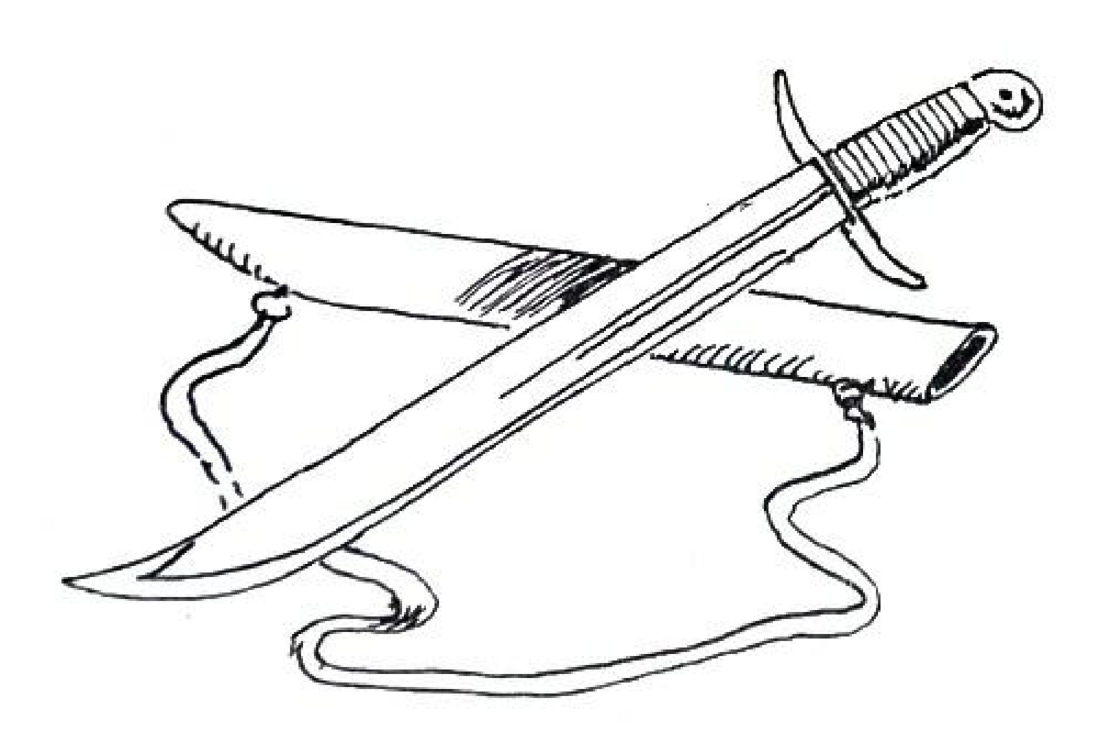
وصمت الجميع كأنهم فقدوا الحجة للرد فأسترسلت الأم بحديثها كأنها تحاول، أن توصل الحبل الذي انقطع بين ابنها «ثابت» وبين قومه الذين وتروه وهو غائبٌ عنهم:

ـ أيعيبكم ان يكون «ابن الليل» هذا الذي ملأت شهرته ونخوته أرض العرب كلها ابنكم؟

أيعيبكم أن يقال ان فقراء الحجاز وتهامة تأكل كل يوم من مائدة «فهم» ومن الإبل التي يغنمها ابنها «ثابت بن جابر» بحد السيف؟

إن كان ذلك يعيبكم فأذهبوا وجزّوا رأسه مع الذاهبين.

فلم يحر أحد منهم جواباً، بل شعروا بالخزي يجللّهم مما ضمروا لثابت فتعاهدوا على أن يصلوا ابنهم ولا يدعوه وحيداً تحيطه الاعداء من كل جانب.



٨



سمع «ثابت بن جابر» بما اجتمعت عليه القبائل، وعرف ما دار في ديار بني فهم بين أمه ورجال قبيلته، وأخذه الزهو بحديثها الطويل معهم، وخصوصاً بذلك الاسم الجميل الذي أطلقته عليه.

حقاً انه «ابن الليل» وهو جدير بهذا الاسم وجدير بأن تطلقه أمه عليه من قبل أن يطلقه أحدٌ سواها. وضحك مما لقّبه به أبناء قبيلته.. «تأبّط شراً» هل تأبط الشر حقاً أم تأبط الخير ومضى به يزرعه في كل مكان من بقاع العرب.

ظلّ في مساء ذلك اليوم هو وأصحابه الأربعة هنـاك ولم يفكروا في الخروج من الوادي، لقد اصطادوا وعلاً كبيراً وقرّروا أن يولمـوا هذه الليلة لأنفسهم، وان يشاركهم في وليمتهم تلك بعضُ من ضواري الليل الجائعة.

فأوقدوا النار وهيأوا الوعل بعد أن سلخوه واقتطعوا أجزاءاً منه لأول زائر من الكواسر مما يعجّ بها المكان.

وقع الدَور على «عتبة» ليكون عيناً وحارساً لهم، فأبتعد عنهم واتكأ على صخرة تشرف على المكان كله، وبعد قليل ضوعت رائحـة الشواء وانتشر العبق في الهواء، فتبسّم إذ تخيّل أصحابه وهم يأكلون وينعمون بأحاديث الغزو والولائم ويتندّرون بما يتناقله الناس عنهم في كل مكان. ثم انفرجت شفتاه بابتسامة عريضة حين تذكرّ ما قاله «ابن الليل» قبل قليل: «سوف نُولِمُ هذه الليلة للضواري الجائعة»

ما أعزّك ياثابت وما أشد كرمك، لقد فاض كرمك فتجاوز بني البشر الى الجوارح والكواسر تُرى كيف يسمّيك قومك «تأبط شراً»؟

في تلك اللحظة سمع أصحابه يلغطون بأصوات مبهمة تحملها الريح إليه، ثم سمع زمجرة وهمهمة ترتفع ثم تنخفض، فعرف أن أول زائر قد وصل، وها هو يتلقّى حصته من الوليمة ويعبّر عن شكره لمضيفيّه بتلك الزمجرة الخافتة.

ولم يمضِ بخياله طويلاً حتى أحسّ بحركة غريبة تصدر من جانبه، وما إن التفت ليرى سرّ تلك الحركة حتى فاجأه النمر قافزاً عليه ناشباً أنيابه ومخالبه القاتله في جسده. في تلك اللحظة حاول «عتبة» ان يمسك



بسيفه ويثب مبتعداً عن النمر صارخاً به صرخة زاجرة، محـاولاً أن يتفادى الأستسلام بين مخالبه وأنيابه ولكن الأمر قد فات.

وسمع الجميع وهم في جلستهم تلك صرخة «عتبة» اليائسة وزمجرة النمر وهو يجثم عليه لأسكاته وافتراسه. فوثبوا من مكانهم راكضين باتجاه الصوت. وقبل أن يباشر النمر بسحبه والفرار به كانـوا قد انقضّوا عليه بسيوفهم فتركوه جثة ممزقة على الارض.

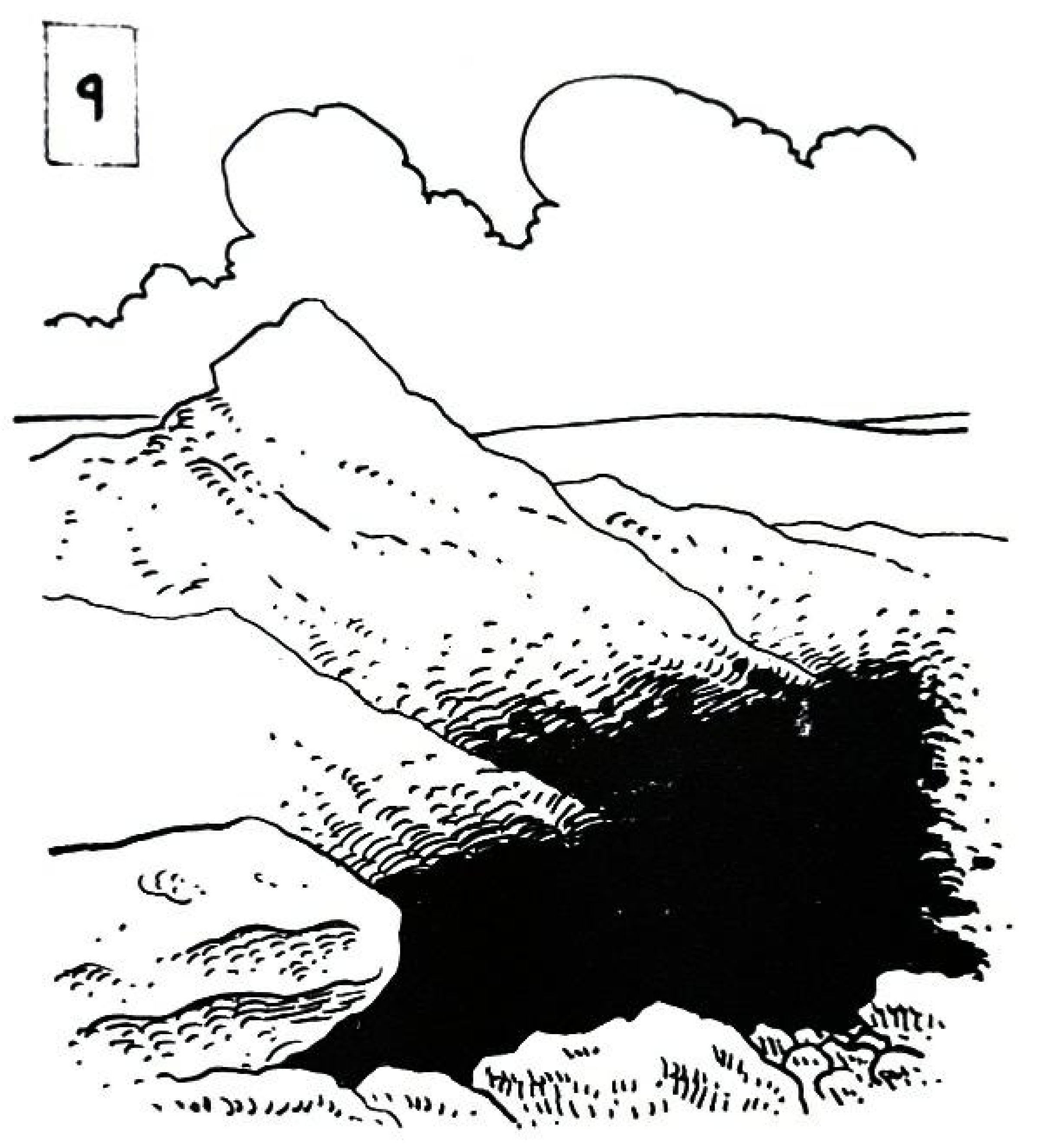
وحين نقلوا «عتبة» الى مكانٍ قرب النار كان يلفظ انفاسه الأخيرة، وراح يحكي لهم بكلمات متقطعة وبالبسمة الهادئة التي ارتسمت على وجهه ماحدث له وماكان يحدِّث به نفسه قبل أن يفاجئه النمر وينشب مخالبه وأنيابه في جسده.

وقبل أن تخمد النار خمدت أنفاس «عتبة» ومات بين أيدي أصحابه وكأنه كان يعلم حين ردد قول «ابن الليل»:

«سوف نولم هذه الليلة للضواري الجائعة»



٩



كان موت «عتبة» بتلك الطريقة البشعة قاسياً على أصحابه، فلم يكن الموت ذاته يخيفهم بل كانوا يسعون اليه كل يوم في غزواتهم وغاراتهم. ولكنهم كانوا يأنفون من أن تصطادهم وحوش البرية كالخراف وهي التي تهرب من أمامهم خائفة مذعورة، فعاهدوا أنفسهم على أن يثأروا لصاحبهم ويطاردوا الوحوش في الشعاب والمغاور ولا يتركونها حتى يشبعوا من لحومها المرّةِ الزنخة.

وظلّوا أياماً يبحثون في الكهوف والأغوار والسفوح، يطلقون نبالهم ورماحهم ويهاجمون بسيوفهم كل حيوان ضارٍ، حتى جمعوا منها عدداً ليس بالقليل وحملوها قرب ذلك الموقد الذي شهد انقطاع أنفاس «عتبة».

وفي ظهيرة ساخنة، عَبقةٍ بالهواء الثقيل ارتفعت ألسنةُ النيران وقد تحلّق حولها ثلاثة رجال يمتزج في وجوههم الحزن والغضب والتقزّز ووقف رابعهم على بعد ينظر الى حلق الوادي والأرض المتموّجة الجرداء والنجود المحيطة بها.

وما هي إلّا لحظات حتى سمع الجميع «الشنفرى» وهو يصيح:

ـ هناك أحدهم يتوجه الينا.

ووقف الثلاثة قرب النار والتفتوا بوقت واحد الى صاحبهم لمعرفة المزيد...

ـ هناك أحدهم يتوجه الينا.

انطلق «ثابت» وانطلق خلفه «ابن برّاق» وسَلَمة، وقد أمسك كل واحدٍ منهم بسيفه عارياً من غمده، وحين صاروا جوار «الشنفرى» شاهدوا أمامهم وعلى بعد مرمى السهم، رجلاً يسير متعثّراً منهكاً، كأنه عانىٰ من سفر طويل في الفيافي والوهاد فأنتظروا حتى اقترب منهم فرأوا بأعينهم شاباً متعباً أنهكه السير وأمضّه العطش، لا يحمل على كتفه مزوداً ولا سلاحاً. فصاح به «ثابت» من مكانه العالي قائلاً:

ـ إلى أين وجهتك يا أخا العرب؟

ـ إلى أكارمهم... حيث تصل نيرانهم كل أحياء العرب.

فهم «ابن الليل» بسرعة ما عناه الشاب في قوله: «حيث تصل نيرانهم كل أحياء العرب»

فقال مرحباً:

ـ حللت أهلاً ووطأت سهلاً... أبشر لقد وصلت.



ساروا والفتى معهم إلى حيث ترتفع النيران متوقدة، متأججة، وما إن جلس ليستريح حتى جيء له بالماء فشرب. وصمت الثلاثة وهم ينظرون الى الشاب الذي بدأ ينقل نظره بينهم وبين الكهوف والمغاور والنار التي أمامه، وما إن التفت الى أحد الجوانب حتى هاله المنظر الذي هناك، عدد من النمور والفهود والذئاب والضباع مرمية على بعضها وما زالت الدماء تسيل من بعضها على الارض.

أراد أن يفتح فمه ليقول شيئاً ولكنه لم يجد ما يقوله فاستمر في صمته وقد ارتسمت على وجهه علامات الخوف والدهشة. في تلك اللحظة قام «ابن الليل» ومضى الى تلك الضواري الميتة فسحب منها نمراً وقربه من النار.

مدّ يده أولاً وسحب مديةً كان يخبئها في جلد ماعز كان يلفه حول خاصرته وراح يسلخ جلد النمر حتى أتمّه ثم رفع السيف وقطع رأسه ورماه يتدحرج بعيداً على السفح. كل ذلك والفتى ينظر اليه ذاهلاً، مستغرباً وقد أبعد عن ذهنه أن تكون النار معدّة لهذا الغرض. لقد سمع كثيراً من القصص عن «ثابت بن جابر» وأصحابه ولكنه لم يسمع بهذه الحكاية العجيبة من أحد. هل سيأكلون هذه الحيوانات البشعة ؟ ايتركون لحم الأبل الطيب، يوزعونه على الناس ويقيمون ولائمهم في كل مكان ويأكلون هم الضباع والذئاب والنمور؟



كان الشاب يرى ما يفعله أمامه «ثابت بن جابر» ويكاد لا يصدق عينيه. في تلك اللحظة وضع جسد النمر المسلوخ على السفود وراح يديره ويحمّصه كأنه يشوي جدياً صغيراً، لذيذاً.

كل ذلك كان يحدث والرجال الثلاثة الآخرون صامتون، فتنحنح الشاب قليلاً وأراد أن يقول شيئاً، ثم صمت وعاد مرة أخرى وهو ينظر في الوجوه الجامدة التي أمامه ثم قال:

ـ جئتكم لأخبركم بما تضمره لكم القبائل من....

ولم يكمل حديثه إذ رأى «ابن الليل» وهو يحدّق به بعينيه المتوقدتين، الجارحتين.

ـ انا علقمة بن الحارث الازدي، وترتني عشيرتي فهربت ملتجئاً اليكم.

وبالنظرات الثاقبة القوية نفسها أجابه ابن الليل قائلاً: «أهلاً بك بيننا».

احسّ علقمة بالفتور في ذلك الترحيب، فخشي أن يكون قد وصلهم شيء عن حقيقته وحقيقة هروبه من أهله فقال:

ـ ولقد اخترت أن اكون فاتكاً في وادي النمور على أن اكون لصاً هارباً ابحث عن أسلاب في الظلام.

ـ وماذا بعد ذلك؟ سأله «ابن الليل» بالفتور والبرود نفسه فصمت ولم يقل شيئاً، إذ كان سؤاله محيّراً.

هل كان «ابن الليل» يعني: «ماذا تفعل بعد ذلك».

أيعرف ماذا سأفعل بعد ذلك؟ لقد أخبرته بأنني سأكون واحداً منكم، فاتكا مثلكم، ماذا يريد إذن من وراء قوله: «وماذا بعد ذلك؟».

كاد الشاب علقمة الأزدي أن يكشف نفسه ويعترف، ثم يطلب العفو ويمضي الى حال سبيله مبتعداً عن وادي النمور ومخاطره التي لا تُحصى، ولكنه في صمته استطاع أن يعيد توازنه ويحتفظ برباطة جأشه. في تلك

اللحظة سمع «ابن الليل» يقول له شيئاً زرع الأمان والثقة في نفسه ثانيةً.
لقد قال له وهو يقتطع شيئاً من لحم النمر ويقدّمه له:
-كُلِ الآن فأنت جائع، إننا لا نسألك شيئاً مدة ثلاثة ايام، واعلم انك غير مطالب بالحديث عن ذلك حتى اليوم الرابع.

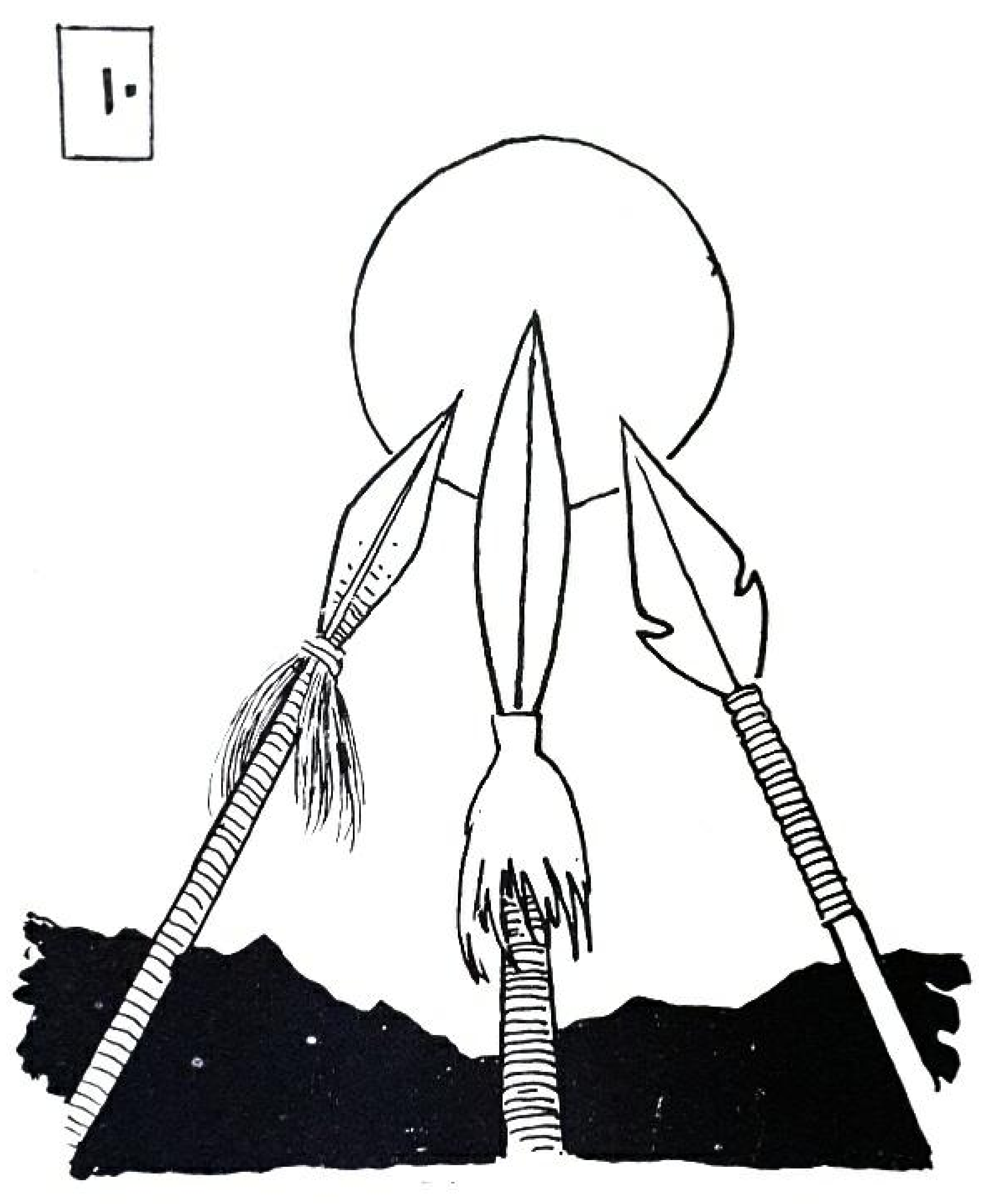
مدّ يده واخذ قطعة اللحم وهو متردّد، وحاول أن يدسّها في فمه ولكنه لم يستطع. وراح الرجال الاربعة يلتهمون لحم النمر صامتين كأنهم يؤدون واجباً عليهم، وحين قاموا كانوا قد جاءوا على أكثره ولم يتركوا منه إلّا القليل، فوقف «ابن الليل» وسحب المتبقي من رجله ورماه خلف الرأس المتدحرج قائلاً:
-لتشبع منك الديدان والهوام أيضاً.

ثم ألقى حُزَماً من الحطب فوق جثث الحيوانات الاخرى وأشعل فيها النيران.



لم يفهم «علقمة بن الحارث الازدي» لماذا فعل «ابن الليل» كل ذلك؟ ولماذا أكل مع أصحابه لحم النمر دونما شهية؟ وهم الذين بأمكانهم أن يأكلوا مما يغنمون كل يوم، ولماذا أحرق جثث الحيوانات الأخرى كأنه ينتقم منها؟ وحين عرف كل ذلك تلك الليلة وسمع قصة موت «عتبة» بين مخالب النمر أحسّ بالراحة وشعر بأنه ليس مُرغماً بعد الآن على أن يأكل لحم الوحوش. فنام ليلته الاولى هانئاً مطمئناً فكل شيء يمضي بهدوء وسلام.

١٠



مضى اليوم الثالث على «علقمة» وهو في وادي النمور، وكان قد ألِف كل شيء في ذلك الوادي، قلّة الزاد والماء وأصوات الحيوانات البريّة الضارية في الليل والنوم في المغاور العالية كالوطاويط والقرود. ولكنّ شيئاً واحداً لم يألفه ولم يستطع أن يحدّ قليلاً من قسوته.

لم يستطع أن يألف نظرات «ابن الليل» وهي تلاحقه كأنها تتهمه وتشك فيه، وكانت عيناه حين تلتقيان بعينيه يشعر كأن سهماً جارحاً يخترق أعماقه ويهدّ كيانه، ترى هل اكتشف هذا الفاتك سرّه وعرف ما يضمره وما ينوي فعله؟ أم أن حياة التوحش التي اعتادها وألفها قد جعلته حذراً، مرتاباً بكل شيء؟

حاول «علقمة» أن يبتعد قدر الأمكان عن مواجهة «ابن الليل» والتحدث معه فأنشغل بحدّ أسنّة الرماح رشدّ الأقواس وتهيئة السهام. وكان يرفع نظره بين فينة وفينة ليعرف شيئاً عمّا يدور حوله. وكلما ألقى بنظرة عابرة على «ابن الليل» وجده يراقبه ويحدّق فيه.

وقبل أن ينتهي من عمله رفع رأسه كعادته فوجد «ثابت بن جابر» واقفاً جواره فسرت في بدنه رعشة باردة تداركها قائلاً وما زال شيء من الخوف عالقاً في نبرته:

ـ كل شيء جاهز الآن.. الرماح والنبال والأقواس.

ـ وهل أنت جاهز أيضاً ياعلقمة؟

ـ لأيّ شيء؟

ـ للغزو... فهل تظن أننا سنقضي أيامنا كلها في هذا الوادي المنقطع؟

ـ اظن أننا ننتظر مرور القوافل فنهاجمها.

ـ وهل ستأتي القوافل لتمرّ من بين يديك كل يوم؟

ـ لك ما تشاء فأنا رهن إشارتك.

جمع «ثابت بن جابر» رجاله وراح يشرح لهم خطة تلك الغزوة مفصّلة قائلاً:

ـ الشنفري يمضي الآن الى مضارب بُجيله خلف (رحى بطان) ويحدّد لنا مواطىء الرعاة ومراعي الأبل وسيلقانا هناك في ظاهر الحي وسيكون معي علقمة والبرّاق، وانت ياسَلَمة ستظل هنا تنتظرنا في حلق الوادي.

وما إن اتمّ «ابن الليل» كلامه حتى غادر الشنفرى المكان منفِّذاً ما طُلب منه. وأخذ «سَلَمة» سيفه ورمحه وهبط الوادي متجهاً الى المكان الذي حُدّد له. ولم يبقَ إلاّ ثابت وعلقمة والبراق، وفيما انشغل البرّاق بتهيئة عدة القتال حاول «علقمة» أن يقوم ليهيء لنفسه ما هيأه صاحبه، ولكن يداً قوية هبطت على كتفه وأعادته الى مكانه:

ـ ليست بك حاجة الى شيء ياعلقمة.

ـ كيف؟ وهل سأغزو القوم بيديّ الخاليتين هاتين؟

ـ أنت ستكون معي، وعليك أن تجمع الأبل الشاردة وتعود بها مسرعاً إلى هنا.

ـ دعني إذن أحمل معي عصا أسوق بها تلك الأبل.

ـ ليست بك حاجة اليها ياعلقمة.



وهكذا انطلق الرجال الثلاثة متجهين الى ظاهر الحي لملاقاة الشنفرى والبدء بالهجوم.

كان الطريق طويلاً ووعراً والرجال يغذّون السير غير أبهين بوعورة الطريق وكثرة الأشواك والصخور، وتحوّل سيرهم الحثيث إلى عدو سريع كأنهم مطاردون يحاولون الخلاص من مطارديهم.

ظلّوا على حالهم تلك زمناً، صامتين لا يتحدثون بشيء وبين أونة وأونة يلتفت «ابن الليل» فيلقي نظرة سريعة، خاطفة على «علقمة» الذي يجري خلفه مثل ظل، فكأنه يحذره من مغبة اي فعل أو حماقة قد يفكر بارتكابها في أثناء الطريق أو بعده.

فجأةً توقّف «ثابت» عن الجري فتوقف من خلفه الرجلان التابعان وراح ينظر من حوله صامتاً حذراً.

ـ هل سمع أحدكما شيئاً؟ قال ذلك بصوت هامس.

ـ «لا شيء» أجابا بوقت واحد.

الأرض ممتدة امامهم لا تعترضها غير ربوات صغيرة وتلال واطئة. والشمس ما زالت عالقة في الأفق الشرقي لم تتوسط كبد السماء بعد. والنهار في أوله. ولكن «ابن الليل» وحده الذي أحسّ بالخطر يدنو منه.

أرأى ما يثير فيه هذا الحذر أم سمع صوتاً غريباً فتوقف ليكتشف السرّ الذي وراءه؟

بقي الرجلان ينظران الى صاحبهما صامتين ثم راحا ينقلان نظرهما حيثما ينتقل نظره حول المكان. وبعد قليل انطلق من جديد وكأن شيئاً لم يحدث، فأنطلق خلفه «علقمة» و «البرّاق» من دون أن يقولا شيئاً.

ولم يمض من الوقت سوى هنيهات حتى توقف ثانيةً وأعاد السؤال نفسه:

ـ هل سمع احدكما شيئاً؟

فضحك «علقمة» فيما ظلّ البرّاق صامتاً ينظر إلى صاحبه مستغرباً.



ذاهلاً. وقبل أن يتمّ الرجل ضحكته كان سيف «ابن الليل» قد انغرس في عنق «علقمة» والنار تلتهب في عينيه، فجمد هذا في مكانه خوفاً من أن يدخل النصل في عنقه وينتهي الأمر، وحين سال خيط من الدم على صدره رفع «ابن الليل» السيف عنه وما زالت نظراته تصبّ حممها في عيني علقمة.

ـ أانت شجاع الى هذا الحد حتى تستهين بالأمر؟ قالها «ثابت» بصوت أجش.

ـ ولكني لم أفعل شيئاً.

ـ بل فعلت الكثير.... سألتك فأجبني دونما حاجة الى هذا الظرف الثقيل.

في تلك اللحظة ظهر فوق أحد التلال القريبة نمر أرقط وراح يدير راسه الى الجانبين مكشّراً عن أنياب مخيفة.

ثبت الرجال الثلاثة في أماكنهم وهم ينظرون إلى هذا الحيوان المفترس وقد بدا غاضباً، ثائراً بسبب الجوع والرغبة في الأفتراس.
والتصق «علقمة» بأبن الليل وهو يرتجف من الذعر والهلع فيما سلّ ابن برّاق سيفه وبقي متربصاً بانتظار إشارة من صاحبه.

في تلك اللحظة ضحك «ابن الليل» ضحكة قوية والتفت الى «علقمة» قائلاً:

ـ الآن تستطيع أن تضحك إن أردت ولكن الرجل كان قد اصفرَّ وتخاذل حتى أوشك أن يسقط لولا أنْ تداركه «ابن الليل» وأمسك به محاولاً تشجيعه:

ـ ماذا جرى؟ ألم ترَ في حياتك نمراً يارجل؟

ـ لم أرَ مثله في هذه الهيئة... انه سيمزقنا جميعاً.

ـ أخائفٌ انت على نفسك أم علينا؟

ـ بل خائفٌ علينا جميعاً.

والتفت «ابن الليل» الى البرّاق الذي ما زال يمسك بسيفه متهيئاً لأية حركة من جانب النمر قائلاً:

ـ اعطني رمحك وخذ صاحبك وتخلّفا قليلاً عني.

أعطى البرّاق رمحه من دون أن ينبس بكلمة وتراجع مع «علقمة» الذي وجدها فرصة للفرار من أمام النمر، وبقي ابن الليل في مكانه وقد رمى بسيفه على الأرض وأمسك بالرمح من وسطه وانحنى قليلاً كأنه يتهيأ للوثوب كما فعل النمر وهو يخطو خطوات قصيرة، هابطاً التل، متّجهاً الى حيث يقف ثابت بن جابر.

لقد عرف كل منهما صاحبه... أحسّ النمر أن خصمه هو هذا الرجل الصغير الذي بقي في مكانه لم يتزحزح، وأحسّ «ابن الليل» ان النمر الجائع لا يبغي سواه ولا يريد غيره.



بدأت المسافة بينهما تقصر، والنمر يزداد غضباً وهياجاً بعد كل خطوة يخطوها نحو فريسته، وحين صارت الفسحة بينهما تكفي لوثبة واحدة ثنى النمر قدميه الأماميتين ونفخ في التراب الذي أمامه، وتوقدت عيناه الشرستان اللامعتان، وبلمح البصر قفز قفزته المرعبة، منقضاً على الرجل الذي ظلّ في مكانه كأنه صخرة نابتة في الارض.

وارتجَّ الافق بزئير كائنين غاضبين يحاول احدهما افتراس الآخر، وما إن انجلى الموقف قليلاً وهبط الغبار الكثيف على الارض حتى تحرك الرجل الذي التحم جسده مع جسد النمر قائماً، وظل واقفاً مدة لحظات ينظر الى خصمه الذي تعفر جسده بالتراب وسال دمه حاراً، متدفقاً عند قدميه.





حين رأى البرّاق وعلقمة ذلك المشهد صمتا ولم ينطقا بشيء.. فقد عقد الفزع لسانيهما، وحينما شاهدا ابن الليل يقف والنمر مدداً على الارض استعادا شيئاً من هدوئهما واقتربا قليلاً، من المكان.

كان الرمح مغروساً في صدر النمر وقد خرجت ذُبالته من قفاه، وكان ابن الليل واقفاً والدم يسيل من صدره وكتفه اليسرى، وقبل أن يفتح أحدهما فمه ليقول شيئاً خاطبهما قائلاً:

ـ لقد انتهى الأمر، ليس لدينا وقت نضيّعه هنا أتركا الرمح في مكانه وهيّا..



انطلق ابن الليل في سيره من دون ان يعير الدم الذي يسيل من جسده اي اهتمام، وتبعه البرّاق وعلقمة لاهثين، منهكين بفعل ما شاهدا قبل قليل، وكان علقمة اكثر ذعراً وفزعاً، فقد سمع كثيراً عن ابن الليل ولكنه لم يره كما رآه البرّاق ولم يشهد شيئاً من غزواته وغاراتـه، فلم يكن يصدّق كل ما سمعه وتناقله الناس عنه، واليوم بعد أن رأى بسالته وجرأته بعينيـه صار يصـدق كل الحكـايات التي سمعهـا عنه وكـل القصص التي يتناقلها الناس عن بطولته.

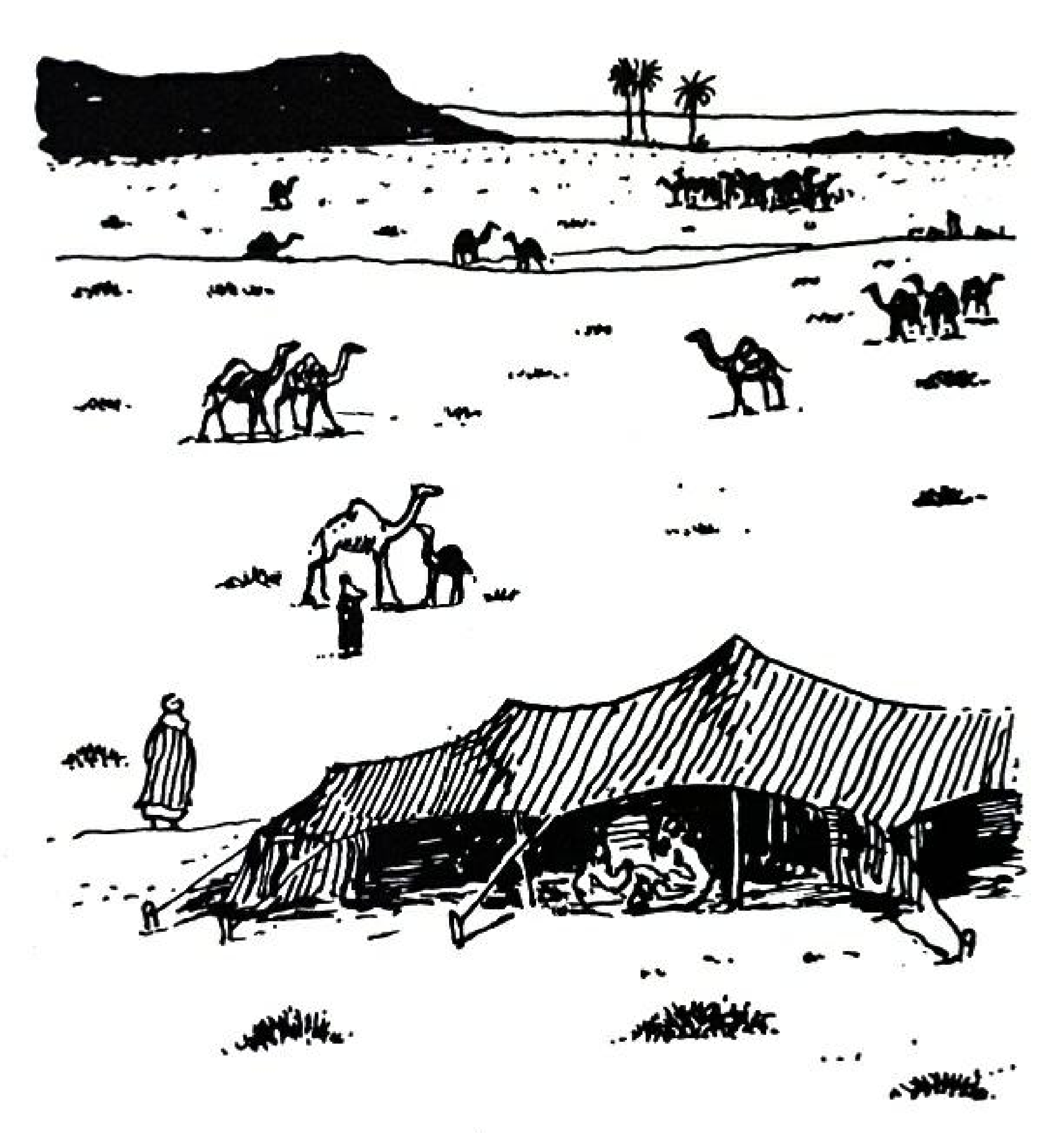
وبينما هما يجرّان اقدامهما جراً وراء ابن الليل ظهرت في الأفق بقعة سوداء راحت تقترب بسرعة منهم فتوقف الجميع لمعرفة تلك البقعـة الداكنة البعيدة.

ـ ها هو «الشنفرى» قادم.

قال ذلك ابن الليل قبل ان تتحدّد ملامح ذلك القادم من بعيد.

وفعلاً بدأت صورته تتضح، وحينما صار على مرمى الرمح ثنى ابن الليل ساقيه وتربّع على الارض طالباً من صاحبيه الجلـوس بانتظـار الشنفرى.

١١



حين وصل «الشنفرى» الى حيث يستريح أصحابه متربعين على الأرض جلس معهم بعض الوقت ليأخذ هو أيضاً قسطاً من الراحة.

وانتظر «ابن الليل» أن يسرد لهم وصفاً لما شاهده في جولته هناك في (رحىً بطان).

وكان ينتظر ما يسرّه من الأخبار كعادته، فطالما أرسل «الشنفرى» لمثل هذه المهات، وطالما عاد اليه مكللاً بالفوز والغنيمة، وها هو يعود الآن وعلى وجهه سيماء الفوز والرضا لا سيماء الخيبة والخذلان.

راح الشنفرى يصف لهم ما شاهده من الأبل السائبة وهي ترعى آمنة، مطمئنة في مرابع القوم، والرعاة غافلون مستريحـون، يتسلّون بالأحاديث فيما بينهم بعيداً عن الأبل.

وحين انتهى «الشنفرى» من كلامه ساد الصمت بينهم برهـة من الوقت، وكان الجميع ينتظرون ابن الليل ليقول كلمته الفصل، ينطلقون بعدها في غارتهم تلك على بني بُجيلة.

وطال الصمت قليلاً فتململ «علقمة» في مكانه وكاد ان يقول شيئاً ولكنه كتم صوته في آخر لحظة، ثم فتح ابن الليل فاه قائلاً:

ـ سنمضي اليهم أنا والبرّاق وتظلّ انت ياعلقمة مع الشنفرى بعيداً عنا.

ـ ولماذا لا نغزوهم مجتمعين؟ أجاب علقمة متحمساً.

ـ لن نغزوهم، بل سنأخذ منهم حاجتنا فقط ونمضي.

ـ ولكنها إبلٌ كثيرة كما سمعت.

ـ ليست بنا حاجة اليها... ماذا تريد أن يقول العرب عنّا؟ نحن لسنا لصوصاً نطمح بأموال الناس.

ـ وماذا نكون إذن؟

ـ ستعرف ماذا نكـون، حين تـأخذهـا أنت نفسك وتنحـرها للفقـراء والجائعين ممن تعجّ بهم أحياء العرب.

وانكفأ علقمة لائذاً بالصمت، مبتعداً قدر الأمكان عمّا يثير «ثابت بن جابر» ويؤجج غضبه، فأن الساعة التي انتظرها كثيراً وانتظرها معه تجار الطائف قد دنت وأوشك الخلاص منه قاب قوسين أو ادنى فلماذا يضيّع هذه الفرصة التي احتمل من أجلها عذاب العيش في وادي النمور اياماً عدة وهو الفتى اللاهي المغامر الذي يقضي حياته في اللعب واللهو والسمر.

انطلق الرجال الأربعة لا يلوون على شيء، فرحين مسرورين كأنهم ماضون لوليمة أو نزهة، عدا علقمة الذي ضجَّ رأسه بصور شائهة مضطربة، فقد راح - وهو المجرد من السلاح - يرسم في خياله خططاً للايقاع بأصحابه وشراكاً لاصطيادهم والعودة بهم موثقين بالحبال. وما





إن قاربوا المكان حتى أومأ ابن الليل لهم بالوقوف. همس بأذن «الشنفرى» ببضع كلمات وتركه مع علقمة هناك وغذّ في السير من جديد والبرّاق يسير خلفه مثل الظل.

بعد ساعة من السير الحثيث وصلا مرابع القوم، وشاهدا المكان كما وصفه لهما الشنفرى قبل سويعات.. إبل منتشرة هنا وهناك ترعى دونما انتظار، والرعاة منطرحون على منحدر من الارض لاهين، سارحين في لهوهم كأنهم ـ وهم في ظهر واديهم ـ آمنون، مطمئنون.

همس «البرّاق» في أذن صاحبه:

ـ لا تتعب نفسك ياثابت سأزحف اليها وأقود اثنتين أو ثلاثاً منها.

ـ بل تنتظر الآن، فمشهد الرعاة هذا يريبني.

ـ ألا ترى انهم منغمرون في لهوهم وأحاديثهم؟

ـ ما أظن هذا اللهو وهذه الأحاديث إلّا احبولة لنا ياابن برّاق.

ـ كيف؟

ـ سترى، وأتمنى ألّا يكون ظني صادقاً هذه المرة.

في تلك اللحظة قام أحد الرعاة وسار مبتعداً عن أصحابه كأنه ذهب ليقضي حاجةله. فانتظر ابن الليل أن يعود الى ربعه ليزيل الشك، ولكن الارض المتموّجة المحيطة بهم قد طوته وغيّبته فلم يعد. وحين وضع «ابن الليل» يده على كتف البرّاق طالباً منه العودة الى وادي النمور، كان ثمة شيء قد حدث في الجوار.

وحين وقف الرجلان لاستطلاع الأمر وجدا ماكانا يخشيانه في تلك اللحظة.

اكثر من مائة فارس يحيطون المكان من جميع الجهات شاهرين سيوفهم ورماحهم وعُصيّهم متجهين حيث يقف «ثابت بن جابر» والبرّاق في تلك البقعة المكشوفة من (رحى بطان).

ترى ما الذي سيفعله «ابن الليل» الآن؟ وماذا يدور في رأسه ورأس صاحبه من أفكار؟

نظر ابن البرّاق في وجه صاحبه فلم يتلمّس فيه أثراً للخوف ولا أثراً للتخاذل. ولكنه أيضاً لم يجد فيه ذلك الغضب وتلك الشراسة التي تنتابه كلما وقع في موقفٍ مثل هذا الموقف. وقبل أن يسأله «ماذا عليهما أن يفعلا الآن؟» قال ابن الليل:

- ارمِ سلاحك على الأرض حين يقترب الفرسان..

- هل فقدت الأمل يا ابن الليل الى هذا الحد؟

- لا، ولكنَّ فعلاً متهوراً قد يضيِّع ما تبقى لنا من أمل.

- هل افزعك عددهم يا ثابت؟

- دعك من هذا الهراء الآن، وافعل ما طلبته منك.

في تلك اللحظة اقترب الفرسان من الرجلين وقد شاهدوا بأعينهم مدى استكانتهما واستسلامهما فلم يحاولوا من جانبهم إثارتهما او إرغامهما على القتال. وحين صاروا على مرمىٰ حجر منهما شاهدوا الرجلين وهما يلقيان سلاحهما على الارض ويقفان، يائسين، منخذلين، بانتظار ما يفعله بهما القادمون.

- من منكما «تأبط شراً»؟

صاح بهما أحد الفرسان بأعلى صوته وقد بدا من هيأته وهيئة جواده أنه سيدٌ من سادة القوم.

- انا «تأبط شراً» أجاب ثابت بن جابر بثبات وجراة وكأنه ليس أسيراً ذليلاً يقف بين حوافر فرس آسره.

- وما الذي جاء بك الى حينا أيها اللص؟

- جئت كما ترى بقدميَّ هاتين.

- لتغزوَنا كما تدّعي أم لتسرق وتهرب متستراً بالظلام؟

- وهل ترى انني جئتكم الآن تحت ستار الظلام؟

- ويحك.. لصٌ دنيء وترفع صوتك على السادة؟

واقترب هذا الفارس حتى كاد صدر جواده يلامس جسد «ابن الليل»، فسلَّ سيفه وغرزه في صدره قائلاً:

ـ هل تنتظر مني غير هذا؟

أتفخر ايها الرجل بهذا؟ هل يشرّفك أن يقال عنك أنك قتلت رجلاً أعزل وانت على ظهر جوادك يحيط بك مائة من فرسانك المدججين بالسلاح؟

سحب الرجل سيفه خجلاً... لقد كان قد وضع نفسه في موضعٍ لا يُحسد عليه، انهما رجلان أعزلان، ألقيا بسلاحهما على الارض واستسلما للأسر، فأين الشجاعة في موقفه هذا؟



نزل أحد الفرسان وجمع السلاح من الارض ثم اندفع آخر فأوثقهما وقادهما الى الحي يحيط بهما الفرسان من كل جانب .



١٢



ظل «الشنفرى» في مكانه منتظراً عودة صاحبيه من غارتهما على إبل بُجيلة، وظل علقمة بن الحارث الازدي بجانبه، وكان كلّما تأخر بهما الوقت يحثّه على اللحاق بصاحبيهما نحو مضارب القوم خشيةَ ان يكونا قد أخفقا في غارتهما تلك.

وتذكر «الشنفرى» الكلمات الأخيرة التي همس بها «ابن الليل» في أذنه، لقد حان الآن وقتها، وما كان «ابن الليل» يخشىٰ وقوعه قد وقع. فماذا يفعل غير الذي اتفقا عليه؟

ومثل ما يفعل الوعل المحاصر، رفع «الشنفرى» رأسه الى فوق وأداره دورةً واثنتين ثم أطلق ساقيه النحيلتين للريح وفرّ عائداً بأتجاه وادي النمور.

فتح علقمة فمه ذاهلاً مما رأى ثم اطلق ضحكة خرقاء في ذلك الخلاء الفسيح، وراح يحدّث نفسه بصوتٍ عالٍ، وما زالت ضحكته المدوّية الساخرة تجلجل في ذلك المكان:

ـ «لقد فرّ الفاتك مدججاً بسلاحه»

كان علقمة يتوقع مثل هذا المصير لثابت بن جابر ولكنه لم يتوقع أن يخذله صاحبه قبل أن يحتدم القتال، ولم يتوقع أن ينفرط عقد هذه العصبة المتراصّة بمثل هذه السهولة.

وفكرّ مع نفسه، ماذا يفعل الآن؟ أيمضي إلى أصحابه يخبرهم بما جرى أم يمضي إلى الحي فيتأكد من مصير «ابن الليل» ويرى بعينيه الحبال وهي تلتف على معصميه وساقيه بانتظار سوقه الى الطائف محمولاً على ظهر جمل يمضي به من أمام وادي النمور.

ولم يشغله التفكير كثيراً إذ سرعان ما قفل عائداً الى قومه في الطائف ليبشّرهم بالخبر ويقصّ عليهم حكاية الأيام الأربعة التي قضاها هناك يحيك خيوط الشرك الذي صنعه للايقاع بثابت بن جابر وأصحابه.





قضىٰ «ابن الليل» وصاحبه «البرّاق» ما تبقّى من نهار ذلك اليوم في خيمة صغيرة وسط الحي، وقد أحكموا وثاقهما وربطوهما مثل حيوانين مفترسين في عَمَد الخيمة. وظل الرجال والنساء والأطفال يتسلّون بالنظر اليهما كأنهما شيء غامض غريب، وفي الوقت نفسه بعثوا بمن يُخبر تجّار

الطائف بخبر أسرهما واستعداد بجيلة لتسليمهما وتسلُّم الجائزة السنية التي رصدوها مكافأةً لمن يتمكن منهما ويخلص الناس من شرورهما.

وقبل أن يجنّ الليل اختار «حاجز» سيّد بُجيلة ثلاثة من رجال القبيلة الشجعان وجعلهم حراساً على تلك الخيمة ريثما يسفر الصباح ويأتي رسل الطائف فيأخذوا معهم الأسيرين إلى حيث يشاءون.



كان الليل طويلاً، وكان الاسيران منطرحين صامتين ينظر كل منهما الى صاحبه في ظلام الخيمة مثل أسدين سجينين في قفص لا يستطيعان فيه حراكاً، وكانا يسمعان الرجال خارج الخيمة يلغطون بكلام مبهم لا يكاد يُسمع، لقد أمضّهما الجوع والعطش، وآذاهما حدُّ الحبال التي تدور حولهما بلا رأفةٍ أو رحمة، ولكن أحداً منهما لم تندّ عنه كلمة تأوهٍ أو أنّة ألمٍ فمثلهما لا يشكو ولا يتأوّه، ومثلهما لا يركبه الحزن والفزع.

ثم انتصف الليل فأغرق المكان بسكونه ورهبته وبدأ لغط الـرجال يتقطع شيئاً فشيئاً إلى أن خمد وذاب في الظلمة.

في تلك اللحظة سمع «ابن الليل» من بين-أصوات الضواري القادمة من البرية صوتاً لم يكن غريباً عليه، كان الصوت يأتيه من بعيد كأنه من وادي النمور.

لقد تذكرّ أيامه الخوالي هناك وهو ما يزال منطرحاً، موثقاً بالحبال في وسط الخيمة، تذكرّ الشنفرى حين كان يتربع على احدى صخور الوادي في الليالي المظلمة قبل أن ينام ويحاكي الوحوش الضارية كأنه يناجيها. كان يقلّد أصواتها ويعبث معها، وحين يتعب ينزل عن صخرته ويذهب لينام.

سمع «ابن الليل» الصوت ثانيةً وبدا هذه المرة قريباً أنيساً كأنـه يسامره هو وصاحبه الملقى بجانبه يحدِّق فيه وسط ظلام الخيمة.

كانت اللحظات التي تمضي، تمضي بطيئةً شديدة البطء... كل شيء غارق في الصمت والحي كله يغفو ساكناً، خامداً، منغمراً في السكون. ولكن «ابن الليل» وحده كان خارج هذا السكون.

كأنه يسمع نبض الأرض وهي تخفق من تحته. وضع أذنه على أرض الخيمة وراح يتنصّت للخطوات التي بدأت تزحف نحوه. كانت تضرب في اذنيه كأنها ضربات الصخور حين تتهاوى من القمم العالية إلى الوديان. واحسّ لأول مرة في حياته بأن ضربات قلبه هي الأخرى كانت تصل

الى اذنيه قوية، ضاربة، فكتم نَفَسه لحظات ليفرّق بين دقات قلبه والخطوات التي تزحف نحو الخيمة.

وقبل أن يأخذ نفساً عميقاً كان «الشنفرى» جوارهما داخل الخيمة. لقد أحسّ به كتلة سوداء أشدّ دكنة من الليل، وسمع أنفاسه اللاهثة تصعد وتهبط كأنه يحاول خنقها وكتم صفيرها الذي بدأ يكسر هذا السكون العميق.

وحين امتدّت يده اليه ولَمَعَ نصل المدية الحادة فوق الحبال عاد اللغط في الخارج، واختلطت أصوات الرجال عند باب الخيمة، وسمع «ابن الليل» الحراس يتحدثون بصوت مسموع:



ـ لا شيء... لا شيء، صرت تتوهم الأشياء يا «حنظلة» ادخل وانظر اليهما انت نفسك.

وبعد قليل دخل أحد الرجال وبيده قنديل صغير لا يكاد يضيء شبراً من الأرض، وحين رأى ابن الليل والبرّاق ممددين، نائمين بوثاقهما، عاد ثانيةً إلى أصحابه.

في تلك اللحظة سمع الجميع الرجل يتحدث الى صاحبه ساخراً: عد إلى أحلامك ودعنا في أحلامنا يارجل.

وفعلاً عاد السكون يملأ المكان، وبدأ «الشنفرى» يقطع بمديته الحبال عن الأسيرين، وما إن انتهى من ذلك حتى خرج يتبعه ابن الليل وابن البرّاق كأنهم ثلاثة من القطط البرية تمشي على الرمال.



حين استيقظت بُجيلة في الصباح كان الأسيران قد غادرا خيمتهما تاركين حبالاً مقطّعة، وصراعاً بين الرجال لن يخفت ضجيجه حتى وقت طويل.





حين وصل خبر أسر «ثابت بن جابر» وصاحبه «ابن البرّاق» إلى تجار الطائف قضوا ليلتهم تلك في اللهو والسمر فرحين، مستبشرين، منتظرين طلوع الصباح ليهيئوا الركب الذي سيمضي الى «بُجيلة» ويعود بالاسيرين.

وكان علقمة بن الحارث اكثرهم طرباً وسروراً، فقد تيسّر له أن ينتهي من مهمته تلك من دون أن يواجه «ابن الليل» أو يكلّف نفسه مهمة أسره أو قتاله.

وحين تمّ تكليفه بقيادة الركب الذاهب الى «بُجيلة» ركبه الغرور وتمكّن منه الطيش فوعد القوم بأن يعرج على وادي النمور فيأتي بسَلَمة والشنفرى موثقين ذليلين ويقضي على تلك البؤرة التي كثيراً ما عكّرت أمن القوافل وأقضّت مضاجع أصحابها، وليرفع بأسرهما مكافأته لدى تجار الطائف.

وما كادت الساعات الأولى من النهار تمضي حتى كان الركب قد وصل حلق الوادي فتوقّف «علقمة» موزعاً رجاله هنا وهناك لتنفيذ خطة الهجوم.

لقد قضى معهم أربعة أيام فعرف مكامنهم ودرس مسالك الطرق المؤدية الى مغاورهم، وها هو الآن يسدّ عليهم المنافذ مع عدد من الفرسان المدرّبين المدجّجين بالسلاح، فهل سيتصرّف الشنفرى وصاحبه كما يتصرّف «ابن الليل» عادة أم يتراجعان إلى عمق الوادي ويختبئان هناك كالضباع الخائفة؟

كان الوقت يمضي على تلك الأرض هادئاً، ساكناً، فكأنما كل شيء يتنصّت بانتظار ما سوف يحدث، وكأن الوادي الذي شهد معارك «ابن الليل» وبطولاته لن يترك هؤلاء يعبثون بسمعته، ولن يسلّم أصحابه للأسر بهذه السهولة.

في تلك اللحظة، وبينما كانت السيوف مُشرعة والرماح تتّجه بأسنّتها الى مسالك الفُتّاك إهتزّ الوادي بصرخات عالية وصيحات تشبه زمجرة الضواري الكاسرة. وقبل أن يفيق «علقمة بن الحارث» ورجاله من هول هذه الضجة التي فاجأتهم من الخلف انفرط الجمع وتفرقت الخيل والأبل، فلم يعرف أحدٌ ماذا يفعل؟ ومن هو عدوّه ليقاتله؟ لقد هاجم



الركبَ عددٌ من الرجال... حفاة، عراة إلّا من خِرَقٍ لا تكاد تستر منهم شيئاً، وقبل أن يصحو الفرسان من ذهولهم كانوا قد اخترقوا قلب القافلة وشتّتوا كل شيء فيها. ومثلما ظهر هؤلاء بلحظات اختفوا بلحظات في شعاب الوادي ومسالكه من دون أن يعرف أحد من رجال علقمة حتى عددهم.

ولما اطمأن القوم على أنفسهم بزوال هذا الخطر الداهم، عادوا فجمعوا إبلهم وخيولهم الشاردة وتحسّسوا مواقع إصاباتهم وخسائرهم.

وفي غمرة حالتهم تلك إفتقدوا سيّدهم علقمة فبحثوا عنه ووجدوه منطرحاً على الارض والدم يشخب من يمينه. لقد كان الوحيد الذي تعرّض الى الأذى في القافلة، أما الآخرون فلم يتعرض لهم أحدٌ بشيء.

لمّ الركب شمله ثانيةً، لكنه فقد أربعة من الأبل وكان «علقمة» يعرف جيداً أين مضت؟ ومن كان وراءها وهي تفرّ مذعورة في شعاب الوادي؟

لقد فقد هو أيضاً شيئاً عزيزاً عليه، فالجرح الذي ما زال يشخب من يده لا يهمّه كثيراً، ولكنه فقد سيفه، فماذا سيقول للرجال الذين معه؟ بل ماذا سيقول لقومه حين يواجهونه غداً؟

كتم الأمر عن أصحابه، وحين همّوا بالمسير إلى ديار بُجيلة للعودة بالأسيرين لوى عنان فرسه باتجاه الطائف وسار محنياً، صامتاً، يجلّله الذل والهوان. فلماذا يمضي الى ديار بُجيلة.

وقد رأى بعينيه «ابن الليل» و «البرّاق» يهاجمان الركب مع صاحبيهما الآخرين قبل قليل؟ وكيف يمضي الى هناك وسيفه الذي كان يودّ أن يضعه على عنق «ثابت بن جابر» أصبح الآن بيمين هذا الفاتك الجبار؟

أحسّ أن عقابه هذا لأشد عليه من الموت بيد عدوّه. لقد كان بأمكان «ابن الليل» أن يقتله في تلك اللحظة ولكنه سَلَبَ منه شيئاً أعزّ عليه من روحه.... لقد سَلَب منه سيفه الذي يقاتل به، وترك يده اليمنى عاجزة حتى عن الأمساك بعصا صغيرة، فهل بعد حالته هذه حالة أشدّ منها ذلاً ومهانةً؟





ظلّ «علقمة» يسير باتجاه الطائف، وحين ابتعد قليلاً عن الركب لم يجد أصحابه بُداً من اللحاق به، فليس من المعقول أن يتركوه يعود وحيداً وهو بحالته السيئة تلك، وحين اقتربوا منه خاطبه أحدهم قائلاً:

ـ كيف تعود ياعلقمة ونحن لم نعد بالأسيرين بعد؟

لم يجب علقمة بشيء.

فأعاد الرجل قوله:

ـ هل يمنعك هذا الجرح من إتمام مهمتك؟

ولم يجب علقمة بشيء.

فامتعض أصحابه من هذا السلوك الغريب فصاح أحدهم قائلاً:

ـ ستعود إذن وحيداً الى الطائف.

في تلك اللحظة سمع القريبون من «علقمة» صوتاً يائساً، منكسراً يفلت من بين شفتيه:

«لقد فرّ الأسيران وعادا الى وادي النمور».

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (١٨٠٧) لسنة ١٩٩٠



وزارة الثقافة والإعلام
دار ثقافة الأطفال

هذه قصة حياة الشاعر الجاهلي الفاتك ثابت بن جابر بن سفيان الملقب بـ «تأبط شرّاً»

عاش في الجزيرة العربية في القرن الذي سبق ظهور الاسلام، وكانت حياته مغامرة إنسانية تتسم بالشجاعة والكرم والمروءة، وقد عاش مع رفاقه الصعاليك في وادي النمور مغتربين عن أهلهم، منبوذين من قبائلهم، متحملين قسوة الطبيعة الجرداء وغدر ضواريها الكاسرة.

انها حياة مليئة بالاحداث الشيقة والمغامرات المثيرة، أبطالها شعراء، عدّاءون نذروا أنفسهم للفقراء والضعفاء في انحاء جزيرة العرب.

دار الحرية للطباعة . بغداد

السعر ١٫٢٥٠ دينار